مكانة الصلاة

ومكانة الصلاة عظيمة سامية عند الله تعالى، وعند رسله الكرام عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، وعند ملائكته الكرام عليهم السلام، وعند المؤمنين في كل زمان ومكان، فهي مفزع المؤمنين، ومعقلهم، وخندقهم، ونورهم، وهي سفينة نجاتهم في حياتهم وفوزهم في آخرتهم.

والحديث عن هذه المكانة قد يطول وقد يقصر، ولا يوفي هذا الحديث حقه وقدره أحد، فمكانة الصلاة تتشابك مع أسرارها، ولا يحيط بأسرارها أحد، وسيظل الحديث عن هذه المكانة ميداناً رحباً فسيحاً واسع الأرجا، متعدد الأنحاء، لا يسعه رحب الأرض الواسع، وهو ميدان يحب أهل العلم الحديث عنه، إبرازاً لمعالمه، واستكشافاً لبعض أرجائه، وأنحائه، وارتياداً لبعض آفاقه، ومحاولة لتلمس بعض أسراره، ولطائفه. وكل واحد منهم يدرك من ذلك على قدر ما يفتح الله تعالى به عليه من الفهم، والاستنباط والاستدلال، فنسأل الله الفتاح العليم أن يفتح بصيرتنا في فهم كتابه، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وفي فهم كل ما يوصلنا إليه سبحانه، فهماً يعيننا على تلمس درب العبودية والمعرفة له جل جلاله.

ويبقى الميدان قبل ذلك، وبعده رحباً واسعاً، شاسعاً، لا يدرك عمقه، ولا يحاط، بأرجائه، وأنحائه، وذلك أن إدراك مكانة الصلاة على جهة الإحاطة والشمول هو إدراك لمقاصدها، الظاهرة والباطنة، العاجلة والآجلة، ومن الذي يمكنه إدراك مقاصدها على ذلك النحو؟ ومقاصد الصلاة متشابكة مع مقاصد الإسلام ومتلاقية معها، ومرتبطة بها، ومن الذي يمكنه إدراك مقاصد الإسلام في شمولها، وكمالها، وتمامها، وإدراك فوائدها وخيراتها الكثيرة الوفيرة، المحسوسة، والمعقولة، الظاهرة، والباطنة، العاجلة، والآجلة؟ فالإسلام هو الحياة بكل ما تدل عليه هذه الكلمة

وتعنيه، في حاضرها الآني وغدها القريب، ومستقبلها الآتي. وعمر كل إنسان محدود، ومشاغله كثيرة والواجبات تفيض على الأوقات، والله تعالى هو المستعان به على كل حال، وبناءً على ذلك كله وسواه مما لم نذكره فإنه لا يسع طويلب علم مثلي، بضاعته قليلة، وإصابته للهدف ضعيفة بل متعذرة إلا الجلوس على طرف من أطراف هذا الميدان الواسع ثم محاولة تلمس بعض المعالم التي يستدل بها مثلي على شيء من هذه المكانة، فلعل الله تعالى ينفع بشيء من ذلك، ومن هذه المعالم الدالة على مكانة الصلاة:

أولاً: أنها – أي الصلاة – ركن الإسلام القوي بعد شهادة التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وهي الشهادة التي قامت بها السماوات والأرض، والتي من أجلها وجد الخلق، ووجدت الجنة والنار، والنعيم، والعذاب، والثواب، والعقاب، والميزان، والصراط، والموت والحياة، وانقسم الناس إلى مؤمن، وكافر، فهي أساس دين الإسلام، ومحوره، ولا يقبل من أحد إسلام، ولا عمل إلا بها، فالإسلام يوجد بوجودها وينتفي بانتفائها، ولذلك كانت أول أركان الإسلام، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ الذي رواه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما في الصحيحين قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان**»[1].

وجاء ترتيب الصلاة في الذكر في هذا الحديث بعد الشهادة بناءً على ترتيبها في الوجود، وذلك دليل واضح على شأن الصلاة، ومكانتها وخطرها، وأثرها في حياة المسلم، فإذا كانت الشهادة هي الدليل القولي على الإسلام، فإن الصلاة هي الدليل العملي عليه، وهي دليل الإيمان أيضاً.

ثانياً: أنها أول فريضة سماها الله تعالى في كتابه الكريم بعد الإخلاص بعبادته

---

(1) صحيح البخاري (1/ 12) برقم (8)، وصحيح مسلم (1/ 45) برقم (16).

سبحانه، قال الإمام المروزي في كتابه: «تعظيم قدر الصلاة»: (فجعل أول فريضة نصها بالتسمية بعد الإخلاص بالعبادة لله: الصلاة)[1]. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾[2].

ثالثاً: أنها تجمع أركان الإسلام، فهي توحيد، وعبودية لله تعالى، وذلك لاشتمالها على الشهادتين في التشهدين الأول والثاني، وهي زكاة فالمصلي يبذل وينفق فيه وقتاً من عمره والعمر هو رأس ماله، فكما أن الزكاة طهرة للمال فكذلك الصلاة طهرة للأوقات والأبدان وصحة لها. وهي صوم لأن المصلي يكف نفسه في صلاته عن كل شيء دنيوي ويصوم عنه، وهي حج لأن المصلي ينفصل عن كل ما حوله بقلبه، ويتوجه إلى ربه، ملبياً أمره بإقامة الصلاة له جل جلاله.

رابعاً: أنها توجب أخوة الدين مع من أقامها، ويحقن بها دمه، ويطلق سراحه بعد دخوله في الإسلام. قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾[3] وقال سبحانه: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾[4]، وقال ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم، وأموالهم، إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»** أخرجه الشيخان[5].

خامساً: أن الله تعالى مدح عباده المصلين، وذلك أمر له دلالاته، وأبعاده المتصلة بمكانة الصلاة، وأثرها، وخطرها في حياتهم، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ

---

(1) تعظيم قدر الصلاة (1/ 86).

(2) سورة البينة: (5).

(3) سورة براءة: (5).

(4) سورة براءة: (11).

(5) صحيح البخاري (1/ 17) برقم (25)، وصحيح مسلم (1/ 53) برقم (22).

﴿هُمْ عَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[1] ففي هاتين الآيتين من سورة (**المؤمنون**) مدح الله تعالى عباده المؤمنين بالفلاح بسبب خشوعهم في صلاتهم.

قال الإمام المروزي: (فمدحهم في أول نعتهم بالخشوع فيها، ثم أعاد ذكرها في آخر القصة إعظاماً لقدرها، في القربة إليه، ولما أعد للقائمين بها، المحافظين عليها من جزيل الثواب، ونعيم المآب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2]، ولم نجد الله عز وجل مدح أحداً من المؤمنين بمواظبته على شيء من الأعمال مدح من واظب على الصلوات في أوقاتها، ألا تراه كيف ذكرها مبتدأة من بين سائر الأعمال، قال الله ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[3]، ثم لم يبرئ أحداً من هذين الخُلقين المذمومين من جميع الناس قبل المصلين، فقال: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[4] ثم أعاد ذكرهم في آخر الآية بذكرٍ آخر، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾[5] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾[6] في كل ذلك يبدأ بمدح الصلاة قبل سائر الأعمال، تبعها ما تبعها من سائر الطاعات، فكرر الثناء عليهم، ومدحهم بالمحافظة عليها، ليدوموا عليها، كل ذلك تأكيداً لها وتعظيماً لشأنها[7].

إن هذا الاهتمام الرباني الكريم بشأن الصلاة، والإشادة بمكانتها في القرآن

---

(1) سورة المؤمنون: (1-2).
(2) سورة المؤمنون: (9-10-11).
(3) سورة سأل سائل: (19-20-21).
(4) نفس السورة: (22-23).
(5) نفس السورة: (34-35).
(6) سورة فاطر: (29).
(7) تعظيم قدر الصلاة (1/ 136).

الكريم لهو أمر جدير بالتأمل والاعتبار من كل من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهو أمر له دلالاته وأبعاده المتصلة بلفت أنظار المؤمنين إلى هذه المكانة حتى يـزدادوا حرصاً على الصلاة، وتعظيماً لشأنها، وإدراكاً لمكانتها.

سادساً: أن الله تعالـى توعد بالوعيد الشديد من ضيع أوقات الصلاة. قال تعالـى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾[1] وقد روي عن أئمة من السلف تفسير إضاعة الصلاة في الآية الكريمة، بتضييع مواقيتها، وروي عن ابن مسعود ﷺ قوله: هي إضاعة أوقاتها، وعدم القيام بحقوقها. قال القرطبي: وهو الصحيح[2].

وقال الأوزاعي عن موسى بن سليمان عن القاسم بن مخيمرة في قوله تعـالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾[3] قال: إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركاً كان كفراً، وقال وكيع عن المسعودي عن القاسم بن عبدالرحمن والحسن بن سعيد عن ابن مسعود أنه قيل لـه : إن الله يكثـر ذكـر الـصلاة في القـرآن: ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[4] و﴿ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[5] و﴿ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[6]؟ فقـال ابـن مسعود: ذلك على مواقيتها. قالوا: ما كنا نرى يا أبا عبدالرحمن إلا على تركها، فقـال: تركها الكفر[7].

ولا شك أن حياة المسلم لا تصلح إلا بالصلاة، والوعيد الشديد من الله تعالـى

---

(1) سورة مريم: (59).
(2) تفسير القرطبي (11/ 122).
(3) سورة مريم: (59).
(4) سورة الماعون: (5).
(5) سورة سأل سائل: (23).
(6) سورة سأل سائل: (34).
(7) انظر: تعظيم قدر الصلاة (1/ 137).

على إضاعة أوقاتها تنبيه للمسلم بضرورة المحافظة على هذه الأوقات حتى تصلح حياته ولا تفسد.

سابعاً: أن تاركها يخرج من الإيمان. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾[1] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[2] وقال جل وعز: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[3] فقد بين الله سبحانه وتعالى شأن المؤمنين في آية السجدة بأنهم إذا ذكروا بآيات الله خروا ساجدين لله مسبحين بحمده، غير مستكبرين عن السجود له سبحانه وتعالى، ودل ذلك على أن من لم يسجد لله تعالى بالصلاة له، فهو ممن لا يؤمن بآياته، وهو من المستكبرين عن عبادته سبحانه، وجزاء المستكبرين عذاب جهنم والعياذ بالله. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[4].

وفي الآية من سورة «**المرسلات**» بين الله تعالى أن عاقبة من لا يصلي ولا يركع مع الراكعين: عذاب النار، ويكون عذابه فيها في مكان مخصوص منها، وهو واد يقال له: (**ويل**) يسيل بصديد وقيح أهلها عياذاً بالله تعالى.

وفي الآية من سورة «**المدثر**» بين سبحانه وتعالى أن أهل الجنة بعد أن استقروا فيها أقبل يسأل بعضهم بعضاً عن المجرمين ما الذي جعل مصيرهم إلى سقر، فكان جواب هؤلاء المجرمين بأنهم لم يكونوا من المصلين، فذكروا أول شيء في مقدمة جرائمهم، وهو أنهم لم يكونوا من المصلين، وذلك دليل على خروج تاركها من الإيمان.

---

(1) سورة السجدة: (15).
(2) سورة المرسلات: (48-49).
(3) سورة المدثر: (42-43).
(4) سورة غافر: (60).

قال الإمام المروزي : (ولقد شدد الله تبارك وتعالى الوعيد في تركها ووكده على لسان نبيه ﷺ بأن أخرج تاركها من الإيمان بتركها، ولم تجعل فريضة من أعمال العباد علامة بين الكفر والإيمان إلا الصلاة. فقال: (**ليس بين العبد وبين الكفر من الإيمان إلا ترك الصلاة**) [1]، فأخبر أنها نظام للتوحيد، وأكفر بتركها، كما أكفرَ بترك التوحيد، ثم أخرج من الإيمان من عاهد من جميع العباد على الإيمان، فقال: (**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**) [2] حديث صحيح، وإن كانت العلماء مختلفة في الإكفار بتركها، فإنهم مجمعون على الرواية بإكفار من تركها، ثم ما غلظ في تركها من وجوب النار، وإيجاب الرحمة والمغفرة لمن قام بها)[3].

وماذا يبقى من إسلام المرء إذا انهار وسقط عموده، فعمود كل شيء هو ما يكون به قيامه وقوته، فالصلاة هي عمود وصلب الإسلام، فمن تركها فقد سقط عمود إسلامه، فلا حظ له في الإسلام، وإذا كان المضيع لأوقاتها متوعداً بالعذاب في واد غي في جهنم، فكيف بمن تركها بالكلية؟ وذلك كله دليل على مكانة الصلاة عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ.

ثامناً: أن القرآن الكريم نص على فرضها. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾[4]، ورد في تفسير قوله سبحانه: ﴿كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ عن الحسن قوله: كتاباً واجباً، وقال زيد بن أسلم: منجماً، كلما مضى نجم جاء نجم آخر، أي كلما

---

(1) رواه مسلم في صحيحه (1/ 88) برقم (82) بلفظ مقارب.

(2) رواه الترمذي في سننه (5/ 13) برقم (2621) في باب ما جاء في ترك الصلاة، وقال: «حسن صحيح غريب»، والنسائي في سننه (1/ 231) برقم (463) في باب الحكم في ترك الصلاة، وابن ماجه في سننه (1/ 342) برقم (1079) باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، وأحمد في مسنده (5/ 346).

(3) تعظيم قدر الصلاة (1/ 132-133).

(4) سورة النساء: (103).

مضى وقت جاء وقت آخر، وقال ابن عباس: أي مفروضاً، وقال أيضاً: إن للصلاة وقتاً كوقت الحج. قال القرطبي: والمعنى عند أهل اللغة: مفروض لوقت بعينه، يقال: وقته فهو موقوت، ووقته فهو مؤقت[1].

وقد جاء فرض الصلاة على المؤمنين متصلاً بما يقوم عليه صلاح أمرهم في الظاهر، والباطن ، وفي العاجل والآجل، فالصلاة فريضة الله تعالى الغالية المباركة على عباده المؤمنين في كل زمان ومكان كيفما كان حالهم بعد التكليف بها، وحتى خروج الروح من الجسد أو العجز عنها بكل وسيلة. فلا يتمرد على أدائها إلا مستكبر، مصيره إلى النار وبئس القرار.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[2]، والمؤمن في أمة محمد ﷺ حين يقيم الصلاة فهو يتواصل مع قافلة إخوانه المؤمنين قبله، وهو بذلك يصل نسبه الإيماني بإخوانه هؤلاء، ويسير على ذات الطريق الذي ساروا عليه، وهو طريق العبودية لله جل جلاله، فالصلاة هي المظهر العملي اليومي الذي يعبر به المؤمن عن هذه العبودية استجابة لأمر الله العظيم: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾[3] فمن لم يقم الصلاة، ولم يركع مع الراكعين فلا حظ له في دين الإسلام.

تاسعاً: أنها تكفر الخطايا وتمحو الذنوب، وهي – أي الصلاة – حسنات مذهبة للسيئات، قال الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾[4] روي في سبب نزول هذه الآية مع اختلاف في ألفاظ

---

(1) انظر: تفسير القرطبي (5/ 374).

(2) سورة غافر: (60).

(3) سورة البقرة: (43).

(4) سورة هود: (114).

الروايات أنها نزلت في رجل قبَّل امرأة، وقيل: وباشرها فيما دون الجماع، ثم أتى النبي ﷺ ليقضي في أمره، فنزلت، فتلاها ﷺ على الرجل، وبين عليه الصلاة والسلام أن هذه الآية ليست خاصة بذلك الرجل بل هي للناس كافة، روى ذلك الشيخان[1] بألفاظ متقاربة.

قال القرطبي: (لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة، وخصها بالذكر لأنها ثابتة الإيمان، وإليها يفزع في النوائب، وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة أخرجه أحمد[2]. وروى الإمام المروزي بسنده عن الإمام المفسر محمد بن كعب القرظي قوله: (بلغنا أن النبي ﷺ قال: **(الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر)**، قلت: أخرجه أحمد[3] وغيره بطرق موصولة. قال محمد بن كعب: وهذا في القرآن: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَٰٓئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾[4] وقال لمحمد ﷺ ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾ فطرفي النهار: الفجر والظهر والعصر ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ المغرب والعشاء ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ وهن الصلوات الخمس)[5].

وما تقدم من الحديث المتصل بمكانة الصلاة آنفاً يدلنا على وظيفة الصلاة، وأثرها في حياة صاحبها، ومعلوم أن الخطايا والذنوب هي سبب لكل ما يلقاه الإنسان في حياته من الشرور، و المصائب، والمهالك. ولو ترك الإنسان المؤمن لذنوبه وخطاياه،

---

(1) رواه البخاري في صحيحه (1/ 196) برقم (526)، ومسلم في صحيحه (4/ 2115) برقم (2763).

(2) رواه أحمد في مسنده (5/ 388) وانظر: تفسير القرطبي (9/ 109).

(3) رواه مسلم في صحيحه (1/ 209) برقم (233)، والترمذي في سننه (1/ 418) برقم (214) وقال: «حسن صحيح»، وأحمد في مسنده (2/ 359، 414، 484) من حديث أبي هريرة ﷺ بألفاظ متقاربة.

(4) سورة النساء: (31).

(5) تعظيم قدر الصلاة (1/ 148).

لهلك ولكن الله تعالى رحيم بعباده المؤمنين، ففرض عليهم الصلاة، وجعلها مكفرة لذنوبهم وخطاياهم، وذلك أن المؤمن لا يخلو من الذنوب غالباً، فجاءت الصلاة هدية الله لعباده المؤمنين، وطهرة لهم، وفي ذلك تطهير لأرواحهم، وتزكية لأنفسهم، وتثبيت لإيمانهم، وتجديد لصلتهم بمولاهم وخالقهم، فما أجمل أن يتجاوز الرب العفو عن عباده المؤمنين، ويغفر لهم، فشأن العباد الخطأ، وشأن الرب سبحانه العفو والمغفرة، وهذا الأمر من شأنه أن يحملنا على أهمية التفكر والتدبر في وظيفة الصلاة في حياتنا، وأننا محتاجون إليها أكثر من حاجتنا إلى الطعام والشراب اللذين بهما قوام الأبدان، والأبدان تشيخ وتهرم، ويأكلها التراب في النهاية، ولكن الصلاة بها قوام الأرواح، وحياتها، والحياة الحقيقية هي حياة وصحة الأرواح، وليست صحة وقوة الأبدان، فكل صلاة هي بمثابة واحة جميلة وارفة الظلال، كثيرة الخضرة والماء، يأوي إليها المؤمن، ويستريح في ظلالها، وخضرتها، وجمالها، فيتزود منها لمسيرة عمله في يومه وليلته، وينطلق نحو أهدافه المباركة في حياته، نظيف المظهر، والمخبر، قوي الإرادة، نظيف الوسيلة والغاية، كريم النفس، طاهر القلب، طيب المشاعر، نبيل العواطف، يستشعر طاعته لله تعالى في كل خطوة يخطوها، السعادة تغمره، وانشراح الصدر يميزه، والرحمة شعاره، وهذا كله وسواه حصل له ببركة إقامته للصلاة.

ولا شك أن ثمة فرقاً كبيراً وكبيراً جداً بين من هذا شأنه، في كل أيام حياته، وبين من يتحرك في حياته وهو ضيق الصدر كأنما يصعد في السماء من شدة هذه الضيق، مثقل بأوساخه، وأدرانه الظاهرة والباطنة، يحس بثقلها، وغمها، وهي تتجدد وتتكاثر مع فجر كل يوم وبداية كل ليلة، لأنه لا يوجد ما يمحوها، ويزيلها، فصاحبها لا يصلي لربه وخالقه سبحانه وتعالى، فقطع بذلك الصلة بينه وبين ربه وخالقه جل جلاله، فأحاطت به غمومه، وأوحاله، وهمومه، وتكاثرت عليه أدرانه الظاهرة والباطنة، فضاق صدره، وأظلم قلبه، واكفهرت نفسه، وقست مشاعره، وتبلدت

عواطفه، وليس له مخرج من كل ذلك إلا بالتوبة إلى الله تعالى، وإقام الصلاة، فلعل الله تعالى يتداركه برحمته، فيعفو عنه، ويقبل توبته. أما إذا لم يتب فهو على طريق الكفار سائر، وسعيه مذموم، ومصيره إلى النار معلوم عياذاً بالله تعالى.

أما المصلي – أي الذين يقيم صلاته – فهو يتحرك في دائرة الحسنات بفضل الصلاة، حسناته كثيرة، وخيراته وفيرة، وحسناته تغلب سيئاته، وتذهب بها، وإذهاب السيئات يشمل إذهاب وقوعها بأن يصير انسياق النفس إلى ترك السيئات سهلاً وهيناً، وهو أمر يدل على مكانة الصلاة، وعلى الدور التربوي الذي تشكله في حياة صاحبها، فهو بها يتربى على الفضيلة، وتسمو نفسه سمواً تحلق من خلاله في سماء الشرف والكرامة، والفضيلة، وترتفع به عن مهابط الرذيلة، ودركاتها ومهاوي المعصية وظلماتها، فصلاته تنهاه عن ذلك مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[1] الآية.

قال العلامة السعدي في تفسيره: (فالفحشاء كل ما استعظم، واستفحش من المعاصي التي تشتهيها النفس، والمنكر: كل معصية تنكرها العقول والفطر، ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها المتمم لأركانها، وشروطها، وخشوعها، يستنير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تنعدم رغبته في الشر، فبالضرورة: مداومتها، والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء، والمنكر، فهذا من أعظم مقاصد الصلاة وثمراتها[2].

عاشراً: أنها علامة فارقة بين المؤمن، والمنافق. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا

(1) سورة العنكبوت: (45).

(2) تفسير السعدي (4/ 59).

قَلِيلًا ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾[2]، ولا شك أن الصلاة ميدان يكشف زيف المنافق ويميط اللثام عن حقيقته التي يعمل جاهداً على إخفائها، فهو لا يمكنه الصبر على الصلاة وعلى تكاليفها، ولا يستطيع الوفاء بحقوقها، فلا بد أن يظهر منه حيالها ما يدل على نفاقه، خاصة في أداء صلاتيْ الصبح والعشاء جماعة. وقد يتظاهر المنافق بالصلاة فترة قد تطول، وذلك لحاجة في نفسه يريدها من الناس من جلب منفعة عاجلة له، أو دفع مضرة عنه، ولكنه بكل تأكيد لا يستطيع المواصلة، فالقرآن الكريم قد بين حاله، وكشف سره، فهو لا يقوم إلى الصلاة إلا متكاسلاً، كارهاً، ومع ذلك فهو لا يقصد بصلاته إلا أن يراءي بها الناس، وهو في حقيقة أمره ذو نفس مظلمة، وقلب منكر لا يعرف ذكر الله إلا قليلاً، وبنص القرآن الكريم، فإن النفاق يورث الكسل في العبادة لا محالة، كما يقرر ذلك أهل البصيرة والعلم.

قال القرطبي في تفسير الآية الكريمة: (أي يصلون مراعاة، وهم متكاسلون متثاقلون، لا يرجون ثواباً، ولا يعتقدون على تركها عقاباً، وفي صحيح الحديث: (**إن أثقل صلاة على المنافقين العتمة، والصبح**)[3]، فإن العتمة تأتي وقد أتعبهم عمل النهار، فيثقل عليهم القيام إليها، وصلاة الصبح تأتي والنوم أحب إليهم من كل مفروح به، لولا السيف ما قاموا)[4]. بينما يكون المؤمن فرحاً بصلاته، مهتماً بها غاية الاهتمام، مسروراً بأدائها، مغموماً، مهموماً إذا حصل منه تفريط غير مقصود في تكاليفها. ومعلوم أن اعتياد المساجد، واعتياد الذهاب إليها بحب، وانشراح، واعتزاز للصلاة مع الجماعة، والتبكير إلى الصلوات كل ذلك وسواه من سمات المؤمنين،

---

(1) سورة النساء: (142).

(2) سورة التوبة: (54).

(3) انظر: صحيح البخاري برقم (657) وصحيح مسلم برقم (651).

(4) تفسير القرطبي (5/ 422).

فالحمد لله الذي جعل الصلاة علامة فارقة بين المؤمنين، والمنافقين، و جعلها ميداناً لطهارة النفس، وتزكية الروح، لا تروعه نفوس المنافقين الملوثة بأدران النفاق وأوساخه، فهي نفوس غارقة في أوحال النفاق المظلمة، وهذا شأنهم في الدنيا، أما شأنهم في الآخرة، فهم معروفون بأنهم لا يقدرون على السجود، والحال أنهم قد دعوا إليه.

وقد بين الإمام المروزي: (أن المنافقين مُيزوا يوم القيامة من المؤمنين بعدم السجود. قال الله: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾[1] وذلك أن المؤمنين لما نظروا إلى ربهم خروا له سجداً، ودعي المنافقون إلى السجود، فأرادوه، فلم يستطيعوا، حيل بينهم، وبين ذلك عقوبة لتركهم السجود لله في الدنيا. قال الله: ﴿ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ ﴾[2] يعني في الدنيا ﴿ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾[3] مما حدث في ظهورهم مما حال بينهم وبين السجود)[4].

حادي عشر: أن أوقات الصلاة هي أحب الأوقات إلى الله تعالى، و(**ساعات الصلاة أفضل من غيرها، وفضَّل اله ساعات الصلوات على سائر الساعات اختارها ليناجيه عباده فيها لصلاحهم**)[5]، ولذلك فإن من أحب أن يرفع حاجته إلى الله عز وجل فعليه بأوقات الصلاة، فهي أوقات مباركة أثيرة عنده سبحانه وتعالى، روى الإمام المروزي عن كعب قال: (اختار الله البلاد، فأحب البلاد إلى الله البلد الحرام، واختار الزمان فأحب الزمان إلى الله الأشهر الحرم، وأحب الأشهر الحرم إلى الله ذو الحجة، وأحب ذي الحجة إلى الله العشر الأول، واختار الله الأيام، فأحب الأيام إلى الله يوم الجمعة، واختار الليالي منها، فأحب

---

(1) سورة القلم: (42-43).

(2) سورة القلم: (43).

(3) سورة القلم: (43).

(4) تعظيم قدر الصلاة (1/ 296).

(5) نفس المصدر (1/ 334).

الليالي إلى الله ليلة القدر، واختار الله الساعات، فأحب ساعات الليل والنهار إلى الله ساعات الصلوات المكتوبات، واختار الله الكلام، فأحب الكلام إلى الله "لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله")[1] انتهى.

وبين الله تعالى في كتابه الكريم أن صلاة الصبح تشهدها ملائكته الكرام. فقال سبحانه: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[2]، وفسر أهل العلم ﴿قُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ بصلاة الصبح، نقل ذلك القرطبي وغيره من المفسرين. وقال ﷺ: (وعبر عنها بالقرآن خاصة دون غيرها من الصلوات لأن القرآن هو أعظمها، إذ قراءتها طويلة مجهور بها حسبما هو مشهور مسطور عن الزجاج أيضاً)[3].

وقد روى الترمذي عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾: (**تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار**) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[4].

والملائكة الكرام عليهم السلام مخلوقات نورانية شريفة كريمة تكثر في الأزمنة، والأمكنة المباركة كما هو معلوم، وهي تجتمع في صلاة العصر أيضاً. قال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون**»[5] وجاءت أحاديث نبوية شريفة كثيرة تبين فضل الصلوات، وتنص بخاصة على فضل كل صلاة منها.

---

(1) المصدر نفسه (1/ 334).

(2) سورة الإسراء: (78).

(3) تفسير القرطبي (10/ 309).

(4) رواه الترمذي في جامعه (5/ 302) برقم (3135).

(5) رواه البخاري في صحيحه (1/ 203) برقم (555) ومسلم في صحيحه (1/ 439) برقم (632).

ومن رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين أن أوقات الصلوات جاءت منسجمة مع مصالحهم في الحياة ولا تستغرق منهم وقتاً طويلاً، فصلاة الصبح هي بداية النشاط اليومي للمؤمن الذي يكون قد أخذ نصيبه من الراحة والنوم، فيكون أول عمل يبدأ به يومه هو الصلاة، ويا لها من بداية جميلة موفقة لها شأنها، ومكانتها عند الله تعالى، ولها أثرها الفعال على نفسية المصلي، وبدنه، وقلبه، وأحاسيسه، وعواطفه، ونشاطه كله، يظهر ذلك جلياً وينعكس على حركته، وأدائه في ذلك اليوم قوة، ونشاطاً، وسروراً، وإنتاجاً، ورغبة في الخير، وفعله، وإقبالاً على الطاعة، وأهلها، وأُنساً بمعية الله تعالى، وتأييده، وقناعة بما قسم الله تعالى له، ورضى عنه سبحانه، وتوفيقاً في فعل الخير، وتسديداً إلى الطيب من القول، وسماعه. ونحن نسأل في هذا المقام: ماذا لو كانت هذه الصلاة مفروضة في نصف الليل، أو في ثلثه الأخير مثلاً؟، نسأل هذا السؤال لندرك رحمة الله تعالى في تشريعه، وفي أحكام دينه العظيم.

إن المتأمل في أوقات الصلوات الخمس ليدرك بكل وضوح أنها جاءت على أكمل وأتم ، وأشمل، وأحسن ما يكون به الانسجام التام بين هذه الأوقات وبين مصالح المكلفين بها، وتقلبهم في الحياة. وذلك دليل بين واضح على رحمة وعلم من فرض هذه الصلوات وهو الله جل جلاله، وعز سلطانه، فله الحمد على نعمه التي لا تحصى، وآلائه التي لا تستقصى حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

ثاني عشر: أن الله عز وجل سماها إيماناً، وإسلاماً وديناً، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾[1]، وقد تواطأت أقوال كثير من المفسرين في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾[2] الآية. بأن الإيمان في هذه الآية: الصلاة، وذلك أن الرسول ﷺ صلى بالمسلمين نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة

(1) سورة البقرة: (143).

(2) سورة البقرة: (143).

عشر شهراً ثم أمره الله تعالى بأن يتحول إلى الكعبة فقال سبحانه: ﴿صَوَلَ وَجهَكَ ـاً ـ ـَلمَصجـ ـَلحَـَامـِ﴾[1].

وقد أخرج البخاري عن البراء قال: (وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ...﴾ إلى ﴿لَ وف ـحَـم﴾[2]. فسمى صلاتهم إلى بيت المقدس إيماناً.

قال سعيد بن المسيب في قول الله عز وجل ﴿وَمَا كَانَ ٱللهلـ ـ ـ إِـمَـنكم﴾[3]: صلاتكم نحو بيت المقدس[4] وهذا من بالغ الرحمة الإلهية بالمؤمنين، وفيه بيان لهم أن صلاتهم إلى بيت المقدس، ثم إلى الكعبة، إنما كان إيماناً بالله تعالى، ولم يكن أساسه إقراراً لعصبية أو غيرها لما يتبعه غير المؤمنين، فالعقيدة الإسلامية لا تقبل راسباً من رواسب الجاهلية في أي صورة من الصور جل أم صغر[5]، فالأمر كله لله عز وجل، فهو الذي أمر عباده المؤمنين في الحالين، وهو سبحانه يربيهم بذلك على العبودية المطلقة التي لا أثر فيها لشيء من تلك الرواسب، والله تعالى رءوف بعباده المؤمنين، فهو يخبرهم في هذه الآية ويطمئنهم على إيمانهم وعلى صلاتهم التي كانت إلى بيت المقدس، بأنهم لم يكونوا على ضلال، وأن صلاتهم لم تضع، فالله تعالى لا يضيع عليهم عبادتهم التي توجهوا بها إليه، ولا يشق عليهم في تكليف يجاوز طاقتهم التي يضاعفها الإيمان ويقويها، فهو جل وعز عليم بطاقات عباده المحدودة، فلا يكلفهم فوقها، وهو سبحانه يهدي عباده المؤمنين، ويمدهم بالعون ويثبتهم من عنده حتى يجتازوا الاختبار حين تصدق نيتهم، وتصح عزيمتهم، وقد نجح المؤمنون في هذا

---

(1) سورة البقرة: (144).

(2) سورة البقرة: (143) وانظر: صحيح البخاري برقم (4486) وهو جزء من حديث.

(3) سورة البقرة: (143).

(4) تعظيم قدر الصلاة (1/ 343).

(5) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (1/ 132).

الاختبار وهو تحويل القبلة، فآمنوا، وصدقوا، ولم يرتابوا.

وإذا كان البلاء مظهراً لحكمة الله تعالى، فإن اجتياز هذا الابتلاء، فضل رحمته[1] سبحانه.

وهكذا جاء النص على رحمة الله تعالى ورأفته بالناس في ختام هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

ثالث عشر: أنها يفزع إليها عند الشدائد والخطوب، ويستعان بها على كل أمر. قال الإمام المروزي : تعالى: (وأمر الله عباده أن يفزعوا إلى الصلاة، والاستعانة بالصلاة، في كل أمرٍ همَّ من أمر دنياهم، وآخرتهم، ولم يخص بالاستعانة بها شيئاً دون شيء. قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[3]، وإنما بدأ بالصبر قبلها لأن الإيمان، وجميع الفرائض والنوافل من الصلاة وغيرها، لا تتم إلا بالصبر، ثم قال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[4] وهم المنكسرة قلوبهم إجلالاً لله، ورهبة منه، فشهد لمن حقت عليه أن يقيمها له، أنه من الخاشعين، و كيف لا يفزع المؤمنون إلى الصلاة وهي عماد دينهم، كذلك أخبر النبي ﷺ أن الصلاة عمود الدين)[5].

ولما كانت الصلاة من أقوى الأسباب التي يستدفع بها البلاء، والشر، والأذى، وكل ما أهم وغم، فقد كان مفزع المؤمنين وما زال عند كل مهم من أمور الدنيا والآخرة إلى مناجاة ربهم في الصلاة، وما استدفعت الشرور بمثل إقامة الصلاة، وإنها السياج الواقي بإذن الله تعالى لأصحابها المؤمنين، من جميع الشرور الظاهرة والباطنة، فهذا أبونا آدم عليه السلام يفزع إلى الصلاة، ذكر الإمام المروزي بسنده عن عبد الله بن عمرو

---

(1) انظر: في ظلال القرآن (1/ 133).

(2) سورة البقرة: (143).

(3) سورة البقرة: (45).

(4) سورة البقرة: (45).

(5) تعظيم قدر الصلاة (1/ 218-219).

رضي الله عنها: أن آدم عليه السلام خرجت به شأفة (**أي قرحة بباطن القدم**) على إبهام قدمه، فارتفعت إلى أصل قدمه ثم ارتفعت إلى ركبته، ثم ارتفعت إلى منكبه، ثم ارتفعت إلى أصل عنقه، فقام، فصلى صلاة، فنزلت إلى مكنبه، ثم صلى أخرى، فنزلت إلى حقوه، ثم صلى أخرى، فنزلت إلى ركبته، ثم صلى أخرى، فنزلت إلى أصل قدمه، ثم صلى أخرى فخرجت من رجله)[1].

وكان نبينا ﷺ إذا رأى بأهله شدة أو ضيقاً أمرهم بالصلاة قائلاً: يا أهلاه صلوا صلوا، وتلا هذه الآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2]،وكان الأنبياء عليهم السلام إذا حزَّ بهم أمر فزعوا إلى الصلاة[3].

قال القرطبي في تفسيره: (أمره تعالى أن يأمر أهله بالصلاة، ويمتثلها معهم، ويصطبر عليها، ويلازمها، وهذا الخطاب للنبي ﷺ ، ويدخل في عمومه جميع أمته، وأهل بيته على التخصيص)[4].

قال الإمام المروزي: (وأمر الله عباده أن يأتموا بمحمد ﷺ ، وأمرهم محمد **(عليه الصلاة والسلام)** إذا رأوا الآيات التي يخافون فيها العذاب أن يفزعوا إلى الصلاة فقال: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، فإذا انكسفت فافزعوا إلى الصلاة**»[5]، وفزع هو إلى الصلاة، ولا نعلم طاعة يدفع الله بها العذاب مثل الصلاة، فصلى الكسوف بزيادة في الركوع، وبكى في سجوده، وتضرع)[6].

ونقلت لنا السيرة النبوية خبره ﷺ في غزوتيْ بدر، والأحزاب أنه كان يصلي

---

(1) نفس المصدر (1/ 224-225).

(2) سورة طه: (132).

(3) انظر: تفسير ابن كثير (5/ 328).

(4) تفسير القرطبي (11/ 263).

(5) صحيح مسلم برقم (901-907) بلفظ مختلف.

(6) تعظيم قدر الصلاة (1/ 230).

طوال الليل فيهما، ففي ليلة غزوة بدر يصف علي ﷺ حال النبي ﷺ فيقول: (لقد رأيتنا ليلة بدر، و ما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلي، ويدعو حتى أصبح)[1] وفي ليلة الأحزاب يصفه حذيفة ﷺ ، فيقول: رجعت إلى النبي ﷺ ليلة الأحزاب، وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. أخرجه أحمد[2].

ونُعي إلى ابن عباس ﷺ ابن له وهو في سفر، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم نزل فصلى ركعتين، ثم قال: فعلنا ما أمر الله به، وتلا هذه الآية: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[3] الآية.

جاء في كتاب «**تعظيم قدر الصلاة**» للإمام المروزي قوله: (فالصلاة مفزع كل مريد عند الشدائد وعند حوادث عظيم النعم شكراً لله، فإذا لم تمكن الصلاة، فالسجود له عند حوادث النعم، وذلك لما عرفهم من عظيم قدر الصلاة عنده حتى إن الملائكة في السماوات السبع، إذا رعبوا فأصابهم هول اعتصموا بالسجود)[4].

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا بكل جلاء أن الصلاة لها أثرها الطيب الفعال عند الشدائد، والخطوب. وهو أمر يدل على عظمة، وسعة وغناء المنهج الإسلامي العظيم في البناء، والتجديد، والإصلاح. ففي ساحة الصلاة يتجدد إيمان المؤمن، ويستعلي على المحن، والشدائد والخطوب، فلا ينهزم أمامها، بل يصمد شامخاً بإيمانه، وصلاته، معتمداً على ربه سبحانه في كل حال، وذلك يدل على أن وسائل التثبيت والتجديد في المنهج الإسلامي العظيم، لا تستورد من خارج هذا المنهج، وهذا أمر له أبعاده ودلالاته المتصلة بقدرة هذا المنهج، على البقاء، والفاعلية، والتأثير، وتقديم كل مفيد،

---

(1) رواه النسائي في سننه الكبرى (1/ 270) برقم (823) والبيهقي في دلائل النبوة (3/ 49).

(2) مسند الإمام أحمد (5/ 388) الشطر الأخير من الحديث فقط.

(3) سورة البقرة: (45) وانظر: تعظيم قدر الصلاة (1/ 222).

(4) تعظيم قدر الصلاة (1/ 235-236).

كريم، فالصلاة تواكب المؤمنين، وتصحبهم في سائر أحوالهم، وهي مفزعهم، وخندقهم، وسياجهم في كل الأحوال، إليها يفيئون، وبإقامتها يستروحون، ويستريحون، ولفوائدها وخيراتها يجنون، وبها عند ربهم يرفعون، وينصرون، يجدون أنوارها، وأسرارها، وثمارها، وبركاتها في سائر أحوالهم، ومن فضل الله تعالى على عباده المؤمنين أن جعل لهم الصلاة سبيلاً، لتفريج الكروب، وستر العيوب، وتذويب الخطوب، وتخفيف المحن والإحن، والشدائد والأهوال، وشرح الصدور، وتقوية القلوب، وتطهير النفوس، وتزكية الأرواح، فهي ميدان الانتصار، ولعلنا ندرك المعنى العظيم في فزع النبي ﷺ إلى الصلاة إذا حزبه أمر. ولعل ذلك يدعونا ونحن نعيش في عصر العجائب والشدائد، وتوتر الأعصاب، وكثرة المفاجآت المذهلة إلى أن نقتدي بنبينا عليه الصلاة والسلام، فنفزع إلى الصلاة عندما يحزبنا أمر من الأمور، وسنجد أثر ذلك في نفوسنا، وحياتنا خيراً، ونصراً وعزة، وطمأنينة، وراحة في النفوس، وانشراحاً في الصدور.

إن الفرد في غير أمة الإسلام حين يحزبه أمر من الأمور فإنه لا يجد في حياته ما يولي عليه، أو يركن إليه من هدي معصوم يعينه على الثبات وتخطي المحن، وتجاوز الخطوب، فهو يلجأ إلى وسائل فاسدة يكذب هو بها على نفسه، ويزعم خداعاً منه لنفسه، أنها تعينه في محنته، فتراه يذهب إلى حانات الخمر، ليفرغ همومه وغمومه في كئوسها، وهو إنما يزداد بذلك هماً وغماً، خاصة بعد أن يفيق من سكرة الخمر، أو يذهب ليشترك في الرقص على أنغام الموسيقى الصاخبة، وهو في هذا الرقص يبذل جهداً بدنياً قاسياً، ومع صراخه، وصراخ الراقصين معه، وبعد بذل ذلك المجهود، يحس بالارتخاء، فيزعم أنه بذلك العمل ينفس على نفسه المكروبة المغمومة، ويطرد همومه وغمومه، ولقد كان هذا الطريق هو البداية لعبدة الشيطان، حيث ظهر الشيطان عليه اللعنة للراقصين على أنغام تلك الموسيقى كما اعترف بذلك أحد عبدة الشيطان

عليه اللعنة.

أو يذهب الفرد في غير أمة الإسلام إلى أماكن بعض الطوائف ذات المذاهب المنحرفة، والتي تعتمد التأمل، ورياضة الأليوجا، سبيلاً، لطرد الهموم، والغموم كما يزعم أتباعها، والواقع أن الفرد حين يبذل جهداً بدنياً من خلال رياضة معقدة مثل رياضة الأليوجا، ويتنفس بطريقة خاصة مع هذه الرياضة، فإنه في النهاية سيحس بنوع من الخفة في بدنه، وذلك أمر ميسور لكل من بذل جهداً بدنياً برياضة الأليوجا أو بأي رياضة كانت، فإنه سيشعر بذلك، لأن في الرياضة بتحريك عضلات الجسم، تجديداً للاكسوجين، وتحريكاً، وتنشيطاً للدورة الدموية، وتحريكاً، وتنشيطاً لأعضاء وعضلات الجسم، ومن شأن ذلك أن تنشأ عنه الخفة، والاسترخاء، ولكن ذلك لا ينشط الروح، أو يقويها وهي لا تنشط ولا تقوى إلا إذا كانت نية العبادة لله تعالى مصاحبة للعمل الحركي في الإسلام، والعبادة توقيفية بمعنى أنها لا تكون إلا بالوحي المعصوم من الله تعالى لنبي من أنبيائه الكرام عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، والديانات التي قبل الإسلام، اندثرت، أو حرفت، والله تعالى لم يتكفل بحفظ ديانة منها، لأنها كانت ديانات محلية، زماناً ومكاناً، ودين الإسلام العظيم وحده هو الذي تكفل الله تعالى بحفظه لأن الإسلام دين العالمين جميعاً، فأمر العبادات فيه معلوم، محفوظ منقول إلينا بالتواتر في جانبيه، النظري، والعملي، وعلى ذلك فإن عبادة الصلاة في دين الإسلام العظيم هي العبادة الصحيحة التي يجد فيها المسلم، حين يفزع إليها، بغيته، راحةً لنفسه وبدنه، وهدوءاً لأعصابه، وتزكية لروحه، وإذهاباً لغمومه وهمومه، لأنها تعظيم لله جل جلاله، وعبودية تشترك فيها سائر الجوارح، طاعة له سبحانه وتعالى.

إننا في حاجة إلى أن نفقه فعل سيدنا رسول الله ﷺ في فزعه إلى الصلاة في ليلتيْ غزوتي بدر، والأحزاب، فقهاً يحملنا على الاقتداء والتطبيق، ونتربى من خلال ذلك

على عقيدة أن الأمر كله لله جل وعز، وأن الشدائد والمحن، والخطوب، تربي الرجال المؤمنين في أمة الإسلام العظيم، الذين يفزعون إلى ربهم وسيدهم، وخالقهم، وناصرهم، ومدبر أمرهم كله، بالصلاة له والاطراح بين يديه، والتذلل لعزته، والتواضع لكبريائه، والانكسار لجبروته، والتضرع إليه، ودعائه، بالثناء عليه بما هو أهله، كما تربي الشدائد والمحن، والخطوب النساء المؤمنات في هذه الأمة المباركة أمة الإسلام العظيم، أمة سيدنا محمد ﷺ على ذات الطريق الذي تربى ويتربى بواسطته الرجال المؤمنون، ولقد سجل تاريخنا الإسلامي الوضيء مواقف رائعة للمؤمنين من الرجال والنساء، كانت أقباساً مضيئة على طريق الفزع إلى الله تعالى بالصلاة بين يديه عند حدوث أمر مهم، اقتداء بالمربي الأعظم والنبي الأكرم سيدنا محمد ﷺ.

إننا في حاجة ماسة إلى أن نعي الأبعاد، والدلالات، والمعاني والتي يمكن أن نستقيها ونستلهمها من وراء فزعه ﷺ إلى الصلاة كلما حزبه أمر. ولا شك أن هذا السلوك النبوي الرشيد، قد وعاه المؤمنون رجالاً ونساء، في أمته ﷺ، واستوعبوا مقاصده العقدية، والإيمانية، والتربوية، فاهتدوا بهدي نبيهم ﷺ في الإلتجاء إلى الله تعالى، ومناجاته بالصلاة له جل جلاله، فكانت حياتهم راشدة، وسعيهم مشكوراً، فازدادوا بذلك إيماناً، ويقيناً وقوة، وثباتاً، فلم تهزهم الشدائد والمحن، ولم تزدهم المصائب إلا إيماناً وتسليماً، فعبدالله ابن عباس ﷺ كما أسلفنا لما نعي إليه ابن له وهو في سفر كان قوله محدداً، وفعله محدداً بمعنى أنه لم يقل، ولم يفعل شيئاً اتباعاً لعاطفته وإنما قال، وفعل ما يمليه عليه اتباعه لكتاب ربه، وسنة نبيه ﷺ فقال: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ وذلك هو ما جاء عليه النص في القرآن الكريم بتربية المؤمنين على هذا القول حين تصيبهم مصيبة. قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[1]، ثم نزل من على راحلته، وصلى ركعتين، وذلك منه اتباع لسنة

(1) سورة البقرة: (155-156).

النبي ﷺ فقد كان يفزع إلى الصلاة إذا حزبه أمر. وابن عباس رضي الله عنهما وهو الذي تربى في مدرسة النبوة الطاهرة على يدي المربي الأعظم ﷺ، يدرك قيمة ما قاله، وما فعله، وهو ما عبر عنه بقوله: فعلنا ما أمر الله به، متمثلاً، وتالياً لقول الله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[1] الآية.

وفي موقف آخر تجسد المرأة المؤمنة من صحابيات رسول الله ﷺ، رضي الله عنهن، موقف الإيمان والإتباع بأجمل وأروع ما يكون، روى الزهري عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط الأموية، وكانت من المهاجرات الأول في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[2] قال: «غشي على عبد الرحمن بن عوف غشية حتى ظنوا أنه فاض نفسه فيها، وفي رواية – حتى قاموا من عنده وجللوه ثوباً – فخرجت امرأته أم كلثوم إلى المسجد تستعين بما أمرت به من الصبر، والصلاة»[3]. ويا له من موقف إيماني عظيم من هذه الصحابية المؤمنة العاقلة، المدركة لشأن، ورفعة اتباعها لكتاب ربها وسنة نبيها عليه الصلاة والسلام، و المدركة في ذات الوقت لمسئوليتها في هذا الموقف، وهو موقف ليس سهلاً على امرأة ترى زوجها مجللاً بالثياب وقد غشي عليه غشية ظنت مع من كان حوله أنه فارق الحياة.

إننا نريد أن نقف مع هذه المرأة المؤمنة في موقفها الحضاري الرائع الذي يدل على سمو عقلها، ورفعة فهمها، وعلى قوة نفسها وإيمانها، ونسأل في ذات الوقت عن السر وراء ذلك كله، خاصة إذا علمنا أن تصرف المرأة في الجاهلية قبل الإسلام في مثل هذا الموقف هو لطم الخدود، وشق الجيوب، وترديد مصطلحات جاهلية؟

إن السر وراء ذلك كله هو الإسلام العظيم الذي تربت به تلك النفوس فكرمت

---

(1) سورة البقرة: (45).

(2) سورة البقرة: (45).

(3) تعظيم قدر الصلاة (1/ 223-224).

به، وسمت، وتطهرت من أرجاس الجاهلية وأدرانها، فأصبحت نفوساً تعكس الإسلام في حياتها بكل قيمه، وأخلاقه، وجماله، وسموه. وليست الجاهلية فترة انتهى زمانها، ولكنها وصف لسلوكيات، وأخلاقيات الإنسان حين ينحرف عن هدي الله تعالى، فهي بذلك موجودة في انحراف الإنسان عن هذا الهدي، وهي ليست جاهلية واحدة، ولكنها جاهليات متعددة: فهناك جاهلية العلم، وجاهلية المعرفة، وجاهلية الأخلاق، و جاهلية السلوك، وأسها كلها: الجهل بالله تعالى وبدينه العظيم. ونحن نريد أن نقارن بين موقف ابن عباس ﷺ حين بلغه وفاة ابن له، وموقف أم كلثوم ﷺ زوجة عبدالرحمن بن عوف ﷺ ، وقد رأت زوجها مجللاً بالثياب يظن أنه مات، وبين مواقف كثير من المسلمين والمسلمات في هذا الزمن حين يواجهون مصيبة الموت، أو حين يواجهون مصيبة ما من مصائب الدنيا.

إن الناس بغير هذا الدين لا تبدو منهم صورتهم الإنسانية الراشدة، ولكنهم تظهر منهم صورة الهمجية، وحياة الغاب، فالمسلم الذي لا يلتزم بأحكام الدين يتصرف عند وقوع المصيبة تصرفاً هو أقرب إلى صورة إنسان الغاب، فالجزع، والغضب، وشدة الحزن، والإغماء، وغرابة الألفاظ، ولبس الأسود، وإطلاق الشعر، وإهمال المظهر، وكثرة التدخين، وذلك هو أكثر ما يميز هذا المسلم الذي لا يرتبط بدينه إلا بمظاهر اجتماعية، أما المرأة في المصيبة، فهي أشد حزناً، وجزعاً، وهي أشد غرابة في تصرفاتها، وصراخها، وعويلها، ولطم خدودها، وشق ثيابها، وحثوها التراب على شعر رأسها.

إن المرء حين يرى هذا المظاهر المتخلفة يحس أن الجاهلية قام سوقها، ويحس بمدى الواقع المتأخر، والمتردي الذي لا زالت المرأة المسلمة تعيشه في معظم البلاد الإسلامية، وهو أمر يلقي بالمسئولية على المربين، وأهل العلم، والدعوة في توجيه المرأة، وتعليمها أحكام دينها.

وإذا انتقلنا من مصيبة الموت إلى بعض المصائب، والابتلاءات التي قد يواجهها الناس في حياتهم اليوم، ووقفنا عند تصرفات بعض المنتسبين للإسلام لرأينا في تصرفاتهم عجائب تجعل الحليم حيران، ومن ذلك: الفزع إلى قبور الأولياء والصالحين، والاستعانة بالسحرة، والكهنة، والمنجمين، وذلك كله وسواه يدل على خلل واضح في عقيدة هؤلاء، كما يدل على جهل فاضح بالله تعالى، وبدينه القويم.

إن المنهج القويم في مواجهة المصائب عند وقوعها هو ما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[1] الآية، وبقوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[2] وفي آيات أخرى في كتاب الله تعالى، وما دل عليه الرسول ﷺ بفعله الرشيد السديد في فزعه إلى الصلاة عند مواجهة أمر فيه شدة، و ما روي عنه من سنة قولية جاءت مبثوثة في كتب السنة، وما سوى ذلك من السلوكيات، والأقوال التي ليس لها سند شرعي صحيح، فهو من صنع الجاهلية المعاصرة، والتي تعد في هذا المجال امتداداً للجاهلية الأولى. فالحمد لله على نعمة الإسلام العظيمة، والتي من خلالها ترى آدمية الإنسان، وإنسانيته.

رابع عشر : أنها كانت آخر وصية النبي ﷺ لأمته، وذلك أنه لما اشتد به ﷺ المرض، وبلغ الحال التي لا يكاد يبين فيها لسانه بالكلام، كانت وصيته عليه الصلاة والسلام للأمة في تلك الحال الشديدة الصلاة. روى أنس بن مالك ﷺ قال: كانت آخر وصية رسول الله ﷺ، وهو يغرغر بها في صدره، فلا يكاد يفيض بها لسانه «**الصلاة، الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم**»[3].

---

(1) سورة البقرة: (45).

(2) سورة البقرة: (155-156).

(3) السنن الكبرى للنسائي (4/ 258) برقم (7094) و(7095) وانظر: تعظيم قدر الصلاة (1/ 332).

وهذا الاهتمام الشديد من النبي ﷺ بشأن الصلاة، والذي ظهر في وصيته عليه الصلاة والسلام لأمته وهو في سكرات الموت دليل بين واضح على مكانة الصلاة، وشأنها عند رسول الله ﷺ، وجدير بكل مكلف عاقل أن يتبصر هذه الوصية، وينزلها من نفسه المنزلة التي تليق بها قياماً بحقها، وتنفيذاً لها، ووفاءً لحق من أوصى بها ﷺ، والواقع المشاهد في حياة الناس عند سكرات الموت: أنهم يحرصون على وصية أبنائهم، بما يرونه أهم الأشياء في نفوسهم، وأعزها عليهم، حتى يتذكر الأبناء الوصية، ويهتموا بها، لأن الإنسان في حال معالجة سكرات الموت، يصعب عليه التذكر، اللهم إلا ما كان من الأمور الكامنة في سويداء القلب، وبؤرة الشعور، فإنه في الغالب ينطق بها في تلك الحال، وذلك لشدة الاهتمام والتعلق بها.

والصلاة هي عمود الإسلام، والرسول ﷺ حريص على أمته بأن تقيم عمود إسلامها، وحياتها حتى يستقيم ويبقى لها كيانها، فعمود كل شيء هو ما به بقاؤه، واستمراره ، ومتى هدم العمود ، انهدم ما سواه تبعاً له. فلا قيمة للأمة، ولا قوة لها، ولا استمرار لبقائها حية قوية بين الأمم إلا بإقامة الصلاة. فالصلاة هي نبع الحياة القوية الفاعلة لهذه الأمة. ولعل هذه المعاني تدلنا بقليل أو كثير على عظمة هذه الوصية النبوية الشريفة العظيمة، وعلى شرف، وعظمة نفس صاحبها عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، فهو ﷺ الحريص على أمته، الرءوف الرحيم بها. قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[2] الآية.

خامس عشر: ومما يدل على مكانة الصلاة: أن مصلى المؤمن يبكي عليه بعد موته،

---

(1) سورة التوبة: (128).

(2) سورة الأحزاب: (6).

فقد جعل الله تعالى البقعة التي يصلي عليها المؤمن تبكي عليه دون سائر البقاع[1].

روى سعيد بن المسيب عن علي ﷺ قال: إذا مات المؤمن بكى عليه مصلاه من الأرض، وبابه من السماء[2].

وروى المنهال بن عمرو ﷺ عن سعيد بن جبير ﷺ قال: سئل ابن عباس: أتبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم! إنه ليس من الخلائق أحد إلا له باب من السماء، أو باب في السماء، يصعد فيه عمله، وينزل فيه رزقه، فإذا مات المؤمن، بكت عليه معادنه من الأرض التي كان يذكر الله فيها، ويصلي فيها، وبكى عليه بابه الذي كان يصعد فيه عمله، وأما قوم فرعون فلم يكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير، ولم تبك عليهم السماء والأرض. قال الإمام المروزي[3]: يريد قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾[4] الآية.

جاء في تفسير ابن كثير: وقال مجاهد أيضاً: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً. قال: فقلت له (**أي لابن عباس**): أتبكي الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل[5]. وهذا دليل على أن للسماء والأرض بكاء يعلم الله تعالى كيفيته، وصفته، وأن العلاقة بين المؤمن وبين الكون حوله هي علاقة انسجام ووئام، فالكل يسبح الله تعالى، ويطيعه ولا يتمرد عليه، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

---

(1) تعظيم قدر الصلاة (1/ 334).

(2) نفس المصدر.

(3) انظر فيما تقدم: نفس المصدر (1/ 335).

(4) سورة الدخان: (29).

(5) تفسير ابن كثير (7/ 254).

نحمه ﴿وَلَا تَخْلَقُونَ قَصَبَ حَهِم ۚ إِنه ۚ كَانَ حَلِمًا ۚ وَا﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾[2] وقال جل وعز: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[3].

قال القرطبي في تفسيره: «وذكر ابن المبارك في «دقائقه» أخبرنا مسعر عن عبدالله بن واصل، عن عوف بن عبدالله قال: قال عبدالله بن مسعود ﷺ: إن الجبل يقول للجبل: يا فلان، هل مر بك اليوم ذاكرٌ لله عز وجل؟ فإن قال: نعم سُر به، ثم قرأ عبدالله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾[4]. قال: أفتراهن يسمعن الزور، ولا يسمعن الخير، وفيه عن أنس بن مالك ﷺ قال: ما من صباح ولا رواح إلا تنادي بقاع الأرض بعضها بعضاً: يا جاراه، هل مر بك اليوم عبد صلى لله، أو ذكر الله عليك؟ فمن قائلة: لا، ومن قائلة: نعم، فإذا قالت: نعم، رأت لها بذلك فضلاً عليها»[5].

والخلاصة: أن المؤمن يحبه كل من يحب الله، ويطيعه، من الإنس والجن، والكون المسخر بأمر الله تعالى، بما فيه من حيوان، ونبات وجماد.

سادس عشر: ومما يدل على مكانة الصلاة وعظيم قدرها عند الله تعالى: أنها قرة عين النبي ﷺ. قال الإمام المروزي: (ولو لم يستدل المؤمن على أن الصلاة أحب الأعمال إلى الله إلا بما ألزم قلب حبيبه المصطفى محمد ﷺ من حب الصلاة. وجعل قرة عينه فيها دون سائر الأعمال كلها، وإن كان ﷺ محباً لجميع الطاعات ولكنه خص

---

(1) سورة الإسراء: (44).
(2) سورة ص: (17-18).
(3) سورة البقرة: (74).
(4) سورة مريم: (88).
(5) تفسير القرطبي (10/ 267).

الصلاة ؛ فأخبر أن قرة عينه جعل في الصلاة لربه، لكفاه بذلك دليلاً[1]، وهذا أمرٌ جدير بالتأمل وإلقاء الضوء عليه حتى يمكن أن نتلمس من خلال ذلك بعض المعاني، والدلالات، والإيماءات المتصلة بهذا الأمر.

إن نفس النبي عليه الصلاة والسلام هي أشرف وأكرم نفس، وأطهرها، وأزكاها، فالله عز وجل اصطفى نبيه ﷺ، واختاره من خيارٍ، من خيار، وزكى نفسه، وطهرها، فهو ﷺ صفوة الخلق، والمثل الكامل للإنسانية، فإذا قال عليه الصلاة والسلام «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[2] فمعنى ذلك أن الصلاة بالنسبة إليه ﷺ قرة عين، أي أنها يجد فيها كل ما يتمناه، وذلك دليل على فضلها، وشرفها، فلم تجعل قرة عينه ﷺ في شيء من العبادات سوى الصلاة، فهي ساحة الخضوع، والتذلل، والانكسار لله العزيز الجبار الواحد القهار جل جلاله، وفيها أجمل صور الانكسار، والتذلل، والخضوع، وذلك بالركوع والسجود لله جل جلاله، ولذلك كانت ساحة السجود هي ساحة القرب من الله تعالى، فكون الصلاة هي قرة عين النبي ﷺ دون سائر العبادات دليل على فضلها وشرفها.

والصلاة هي ميدان العبودية لله تعالى، ومظهرها العملي، ولذلك كان ﷺ يجد فيها قرة عينه حيث يزداد قربه من ربه سبحانه بالسجود له، والركوع، والقنوت.

والسائرون على هدي نبيهم ﷺ يتلمسون آثار هذا الهدي في صلاتهم، ويحاولون أن يقتبسوا من أنواره وأسراره، وهم يجتهدون في الإحسان في صلاتهم، فلعل ذلك يكون معيناً لهم على الدخول في ساحة القرب من الله تعالى، ونيل مرضاته. ولذلك فقد كانت الصلاة، ولا تزال هي الميدان الذي يكشف عن القلوب، ومدى تعلقها بالله تعالى وتعظيم هيبته، والخوف من مقامه، ومدى تذللها لعظمته، وانكسارها

---

(1) تعظيم قدر الصلاة (1/ 331) وانظر: أسرار الصلاة لابن قيم، تحقيق: إياد القيسي (122-123).

(2) أخرجه أحمد (3/ 128) والنسائي (2/ 83).

لجبروته، وصغارها لكبريائه.

قال الإمام أحمد: «إنما حظهم من الإسلام على قدر حظهم في الصلاة، ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة، فاعرف نفسك يا عبدالله، احذر أن تلقى الله عز وجل ولا قدر للإسلام عندك، فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك»[1] . فالقلب العامر بمحبة الله تعالى، وخشيته، وخوف مقامه، وتعظيم أمره، وإجلاله، إذا وقف بين يدي الله سبحانه في الصلاة فإن الله تعالى يفيض عليه من فضله، وعطاياه، ويفتح عليه من الخير ما الله به عليم، فتمتلئ أرجاء هذا القلب بالهيبة، والخشية والإجلال لله عز وجل، ويسطع فيه نور الإيمان، وترفع عنه حجب النفس، ودخان الشهوات، فيرتع في رياض معاني القرآن، وتخالطه بشاشة الإيمان بحقائق الأسماء والصفات، وعلوها، وجمالها، وكمالها، فيحصل عنده انفعال بها يستولي على مشاعره، وعواطفه، فيجتمع همه على الله تعالى، وتقر عينه بمناجاته، والتضرع له، والإحساس بالقرب منه، والإقبال عليه، فلا يحس بالدنيا من حوله، ولعل هذه المعاني، وسواها مما يتصل بها تقربنا من أقطار القول النبي الكريم: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**» ليعرف كل منا مدى قربه أو بعده من هذا القول الشريف.

سابع عشر: ومما يدل على مكانة الصلاة، وفضلها، وشرفها: أن الذنوب تتساقط عن المصلي بالركوع والسجود، (رأى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فتى قد أطال الصلاة، وأطنب، فقال: أيكم يعرف هذا؟ فقال رجل: أنا أعرفه، فقال عبدالله بن عمر: أما إني لو عرفته، لأمرته بكثرة الركوع والسجود، وفي رواية: لأمرته أن يطيل الركوع والسجود، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن العبد إذا قام إلى الصلاة، أُتي بذنوبه كلها، فوضعت على عاتقيه** (وفي رواية: فجعلت على رأسه وعاتقه) **فكلما ركع، أو**

---

(1) كتاب الصلاة وحكم تاركها لابن القيم (171).

سجد تساقطت عنه» أخرجه الإمام المروزي في قيام الليل[1]. وخرجه الألباني في الصحيحة[2]، وصححه. وذلك أن الركوع والسجود يمثلان غاية الخضوع والتذلل لله سبحانه وتعالى، فالركوع خضوع، والسجود تذلل، و الركوع في الصلاة يعقبه السجود ليتم تطهير العبد بهما، والركوع قطع لظهر الكبر في الإنسان، والسجود تحطيم لظهر الغطرسة والتعالي فيه، وفيهما دلالة بليغة على أن الدخول إلى ساحة الجبار القهار جل جلاله، لا يتم إلا من خلال أبواب العبودية، والذلة، والصغار، والانكسار. والركوع والسجود أحد هذه الأبواب، والركوع يمهد للسجود، فهو توطئة له، ومقدمة بين يديه، ولذلك تقدمه.

قال ابن قيم : (وشرع السجود على أكمل الهيئة، وأبلغها في العبودية، والسجود سر الصلاة، وركنها الأعظم، وخاتمة الركعة، وما قبلها من الأركان كالمقدمات له، فهو شبه طواف الزيارة في الحج، فإنه مقصود الحج، ومحل الدخول على الله، وزيارته، وما قبله كالمقدمات له، ولهذا أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وأفضل الأحوال له، حال يكون فيها أقرب إلى الله، ولهذا كان الدعاء في هذا المحل أقرب إلى الإجابة، ولما خلق الله سبحانه العبد من الأرض كان جديراً بأن لا يخرج عن أصله، بل يرجع إليه إذا تقاضاه الطبع والنفس بالخروج عنه، فإن العبد لو ترك لطبعه، ودواعي نفسه لتكبر، وأشر، وخرج عن أصله الذي خلق منه، ولوثب على حق ربه من الكبرياء والعظمة، فنازعه إياهما، وأمر بالسجود خضوعاً لعظمة ربه وفاطره، وخشوعاً، وتذللاً بين يديه، وانكساراً له، فيكون هذا الخشوع، والتذلل رداً له إلى حكم العبودية، ويتدارك ما حصل له من الهفوة، والغفلة، والإعراض الذي خرج عن أصله، فتمثل له حقيقة التراب الذي خلق منه، وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه،

---

(1) مختصر قيام الليل ص (130) وانظر: تعظيم قدر الصلاة (1/ 316-317).

(2) رقم (1398).

وهو الوجه، وقد صار أعلاه أسفله خضوعاً بين يدي ربه الأعلى، وخشوعاً له وتذللاً لعظمته، واستكانة لعزته، وهذا غاية خشوع الظاهر، فإن الله سبحانه خلقه من الأرض التي هي مذللة للوطء بالأقدام، واستعمله فيها ورده إليها، ووعده بالإخراج منها فهي أمه، وأبوه، وأصله، وفصله، فضمته حياً على ظهرها، وميتاً في بطنها، وجعلت له طهراً، ومسجداً، فأمر بالسجود إذ هو غاية خشوع الظاهر، وأجمع العبودية لسائر الأعضاء، فيعفر وجهه في التراب استكانة وتواضعاً، وخضوعاً، وإلقاء باليدين)[1].

ثامن عشر: ومما يدل على شرف الصلاة ومكانتها، وفضلها على سائر الأعمال أن موضع السجود من المصلي لا تأكله النار، قال الإمام المروزي: (ومن فضل الصلاة على سائر الأعمال أن من دخل النار من المؤمنين لم يجدوا شيئاً من الأعمال التي عملوها بجوارحهم تمنع شيئاً من أجسامهم من الاحتراق إلا السجود له في الدنيا، فإن النار لم تصب مواضع السجود من المصلين خاصة، كذلك أخبر النبي ﷺ)[2].

قال ابن قيم : (ولما كانت العبودية غاية كمال الإنسان وقربه من الله، بحسب نصيبه من عبوديته، وكانت الصلاة جامعة لمتفرق العبودية، متضمنة لأقسامها، كانت أفضل أعمال العبد، ومنزلتها من الإسلام بمنزلة عمود الفسطاط منه، وكان السجود أفضل أركانها الفعلية، وسرها التي شرعت لأجله، وكان تكرره في الصلاة أكثر من تكرر سائر الأركان، وجعله خاتمة الركعة، وغايتها، وشرع فعله بعد الركوع، فإن الركوع توطئة له، ومقدمة بين يديه)[3].

ولما كان السجود هو سر الصلاة وعمودها، وأفضل أركانها وهو غاية التذلل

---

(1) كتاب الصلاة وحكم تاركها لابن قيم، تحقيق: تيسير زعيتر (178-179).

(2) تعظيم قدر الصلاة (1/ 292).

(3) الصلاة وحكم تاركها (180-181).

والخضوع بالعمل الظاهر كان عطاء الله تعالى لعباده الساجدين عظيماً، و من مظاهر هذا العطاء الكريم:

أن الله تعالى حرم على النار أن تأكل موضع السجود من المصلين، وذلك أمر له دلالاته وأبعاده الدالة على شأن السجود عند الله سبحانه. وقد جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري: «.. **حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج ممن كان شهد أن لا إله إلا الله أمر الملائكة أن يخرجوهم، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء يقال له: ماء الحياة فينبتون نبات الحبة في حميل السيل**» (1).

ومن ذلك: أنه ما سجد عبدٌ مؤمنٌ لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة، وحط بها عنه سيئة. قال ﷺ: «**عليك بكثرة السجود، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة**» (2).

ومن ذلك: ابتهاجه ﷺ، وافتخاره بأنه أول مأذون له في السجود لله تعالى يوم القيامة، فقد أخبر عليه الصلاة والسلام أمته بتعظيم نعمة الله عليه بما يخصه به يوم القيامة، بأن يجعله أول مأذون له بالسجود يوم القيامة، وأخبر أنه إذا قصد إلى الله عز وجل ليشفع لأهل التوحيد خرَّ ساجداً بين يدي الله عز وجل فلا يزال كذلك حتى يؤمر برفع رأسه، ويجاب إلى ما سأل، روي عن أبي ذر، وأبي الدرداء رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أول من يؤذن له في السجود يوم القيامة، وأول من يؤذن له برفع رأسه، فأنظر بين يدي، فأعرف أمتي من بين الأمم، فأنظر عن يميني فأعرف أمتي من**

---

(1) رواه البخاري في صحيحه (1/ 277-278) برقم (6573)، ومسلم في صحيحه (1/ 163-165) برقم (182).

(2) رواه مسلم في صحيحه (1/ 353) برقم (488).

بين الأمم، فأنظر عن شمالي فأعرف أمتي من بين الأمم. فقال رجل: يا رسول الله! كيف تعرف أمتك من بين الأمم؟ قال: غر محجلون، من آثار الطهور، ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم، فأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم»[1].

تاسع عشر: ومما يدل على شرف الصلاة وفضلها: أن جميع الأعمال فيها توحيد لله وتعظيم له. قال صاحب كتاب «حجة الله البالغة» الإمام الدهلوي ﷺ: (اعلم أن أصل الصلاة ثلاثة أشياء: أن يخضع لله تعالى بقلبه، ويذكر الله بلسانه، ويعظمه غاية التعظيم بجسده، فهذه الثلاثة أجمعت الأمم على أنها من الصلاة، وإن اختلفوا فيما سوى ذلك)[2]. ثم أخذ ﷺ ببيان كل أصل من هذه الأصول الثلاثة:

فعن الأول وهو خضوع القلب قال: (والأصل في ذلك أن خضوع القلب لله، وتوجهه إليه تعظيماً، ورغبة، ورهبة أمرٌ خفي لا بد له من ضبط، فضبطه النبي ﷺ بشيئين: أن يستقبل القبلة بوجهه وبدنه، وأن يقول بلسانه: الله أكبر، وذلك لأن من جبلة الإنسان أنه إذا استقر في قلبه شيء جرى حسب ذلك الأركان – أي الأعضاء – واللسان وهو قوله ﷺ: «**إن في جسد ابن آدم مضغة...**» الحديث، ففعل اللسان والأركان أقرب مظنة، وخليقة لفعل القلب، ولا يصلح للضبط إلا ما يكون كذلك)[3].

أما عن الأصل الثاني وهو ذكر الله باللسان فقال: (وأما ذكر الله فلا بد من توقيته –أي ضبطه– أيضاً، فإن التوقيت أجمع لشملهم، وأطوع لقلوبهم، وأبعد من أن يذهب كل أحد إلى ما يقتضيه رأيه حسناً، كان أو قبيحاً، وإنما تفوض إليهم الأدعية النافلة

---

(1) مسند الإمام أحمد (5/ 199).

(2) حجة الله البالغة (1/ 4).

(3) حجة الله البالغة (1/ 5-6).

التي يخاطب بمثلها السابقون على أنها أيضاً لم يتركها النبي ﷺ بغير توقيت -أي ضبط - ولو استحباباً، وإذا تعين التوقيت فلا أحق بالفاتحة لأنها دعاء جامع أنزله الله تعالى على ألسنة عباده يعلمهم كيف يحمدون الله، ويثنون عليه، ويقرون له بتوحيد العبادة، والاستعانة، وكيف يسألونه الطريقة الجامعة لأنواع الخير ويتعوذون به من طريقة المغضوب، والضالين، وأحسن الدعاء أجمعه)[1].

وأما عن الأصل الثالث وهو تعظيم الله بالجسد، فقد قال: (أما التعظيم بجسده، فالأصل فيه ثلاث حالات: القيام بين يديه، والركوع، والسجود، وأحسن التعظيم ما جمع بين الثلاث، وكان التدرج من الأدنى إلى الأعلى أنفع في تنبيه النفس للخضوع من غيره. وكان السجود أعظم التعظيم، يظن أنه المقصود بالذات، وأن الباقي طريق إليه، فوجب أن يؤدي حق هذا الشبه وذلك بتكراره)[2].

ثم استطرد : يذكر كل فعل، وقول من أفعال، وأقوال الصلاة بأسلوب جميل وتعليل لطيف طريف.

على أن الإمام المروزي : قد عدد أعمال الصلاة وهي كلها تعظيم لله سبحانه فقال: (فلا عمل بعد توحيد الله أفضل من الصلاة لله لأنه افتتحها بالتوحيد، والتعظيم لله بالتكبير، ثم الثناء على الله وهي قراءة فاتحة الكتاب، وهي حمد لله، وثناء عليه، وتمجيد له، ودعاء، وكذلك التسبيح في الركوع، والسجود، والتكبيرات عند كل خفض، ورفع، كل ذلك توحيد لله، وتعظيم له، وختمها بالشهادة له، بالتوحيد، ولرسوله بالرسالة، وركوعها، وسجودها خشوعاً له، وتواضعاً، ورفع اليدين عند الافتتاح، والركوع، ورفع الرأس تعظيماً لله، وإجلالاً له، ووضع اليمين على الشمال

---

(1) المصدر السابق (1/ 7).

(2) حجة الله البالغة (1/ 7).

بالانتصاب لله تذللاً له، وإذعاناً بالعبودية) [1].

وإذا كانت جميع أعمال الصلاة، وأقوالها تعظيماً لله تعالى وتوحيداً له، فإنه لا يقدر على القيام بها إلا من وحد الله وعظمه، ولا يكون ذلك إلا من مؤمن، ولعل ذلك يدل عليه مجيء اقتران صفة إقام الصلاة، بصفة الإيمان في كتاب الله تعالى، والحق أننا في حاجة إلى عمل علمي يعمد إلى جمع أقوال أهل العلم في أفعال الصلاة وأقوالها، مثل الغزالي، والحكيم الترمذي، والدهلوي، وابن تيمية وابن قيم، وغيرهم، وإخراج هذه الأقوال في إطار مرتب منظم محلى بشيء من التعليق الخفيف اللطيف، الظريف.

عشرون: ومما يدل على شرف الصلاة وفضلها، ومكانتها: أنها أول ما يحاسب عليه العبد من الأعمال يوم القيامة. روى أبو هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«إن أول ما يحاسب به العبد المسلم يوم القيامة صلاته المكتوبة، فإن أتمها، وإلا قيل: انظروا هل له من تطوع؟ فإن كان له تطوع أكملت الفريضة من تطوعه، ثم يفعل بسائر الأعمال المفروضة مثل ذلك»**[2].

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت، فقد أفلح، وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، وأن انتقص من فريضته شيء، قال الرب تبارك وتعالى: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل به ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على نحو ذلك»** [3]، واللفظ للترمذي.

---

(1) تعظيم قدر الصلاة (1/ 268).

(2) سنن ابن ماجه (1/ 458) برقم (1425) و(1426).
وفي مسند أحمد (4/ 65) و(5/ 377) عن رجل من الصحابة، لم يذكر أبا هريرة.

(3) سنن الترمذي (2/ 269) برقم (413) وقال: حديث حسن غريب، وانظر: سنن النسائي (1/ 232، 233) برقم (465) و(466).

وهذان الحديثان الشريفان يدلان على وظيفة الصلاة وخطرها وأثرها في صلاح الأعمال إن هي صلحت، كما يدلان بالمقابل على أثرها في فساد الأعمال إن هي فسدت. وذلك أمر مشاهد معلوم في حياة الناس، فما من إنسان مسلم مسدد في عمله في هذه الدنيا، وموفق إلى فعل الخير، يجمع بين صلاح الدين والدنيا إلا وهو قد وفق إلى الصلاح في صلاته.

إن ثبات الإنسان في صلاته، وسكينته وخشوعه فيها، يقوده إلى ثبات خطاه، وتعقله في سيره في حياته، وما من إنسان يعبث في صلاته، ويكثر من الحركات فيها، إلا وتجده مهزوزاً، في حياته العملية، غير ثابت، ومستقر، فالله تعالى جعل الصلاة هي عمود إسلام المصلي، فإذا كان عمود الشيء ضعيفاً مهزوزاً، فإنه بالتالي سيؤثر على ما سواه ضعفاً، واضطراباً، وهكذا الصلاة في تأثيرها واثرها على أعمال العبد يوم القيامة، فإن وجدت صالحة فقد أفلح، وأنجح، وإن وجدت فاسدة فقد خاب، وخسر، ولكن كيف يمكننا أن نؤدي صلاة صالحة، تنفعنا في الدنيا، وفي الآخرة؟ إن لكل شيء فيما يتعلق به صلاحاً، أو فساداً أسباباً، ومقدمات تؤدي إلى أحد الأمرين، فما هي الأسباب والمقدمات يا ترى التي تعيننا على أن تكون صلاتنا صالحة؟

إن من أول هذه الأسباب الإيمان بالله تعالى، وتعظيم أمره، وطعمة الحلال.

وثانيها: تفريغ القلب للصلاة، استعداداً، ومحبة لها، وحرصاً على إقامتها، وتحصيلاً لمقدمات إقامتها، من تحصيل الطهور، والهيئة الحسنة، والسواك، والطيب، والتبكير لها، والظفر بالصفوف الأولى، والقيام بفعل سننها القبلية والبعدية، والقولية، والفعلية، وإحسان الفعال، والحال، والمقال فيها.

والصلوات الخمس حلقات متصلة ببعضها، يؤثر بعضها في بعض، فالإحسان في إقامة صلاة الصبح مثلاً، وقتاً، وجماعة، وهيئة، وفعلاً، ومقالاً، يؤدي إلى الإحسان في إقامة صلاة الظهر، والعكس صحيح. وصلاح النية وقوتها عامل مهم في قوة

وصلاح العمل، والعكس صحيح كذلك، فرب عمل صغير صار بالنية القوية الصالحة كبيراً، وعظيماً عند الله تعالى، ورب عمل كبير صار بالنية الفاترة الضعيفة صغيراً عنده سبحانه. والحب له أثره وشأنه في إتقان الأعمال، وصلاحها، فحب الصلاة والاعتزاز بها مهمان في إحسان وتجويد أفعالها، وأقوالها.

وإذا عرف المصلي أن الصلاة كما يقول العلامة أبو الحسن الندوي: (استجابة لغريزة البشر النوعية، غريزة الافتقار، والضعف، والطلب، وغريزة الالتجاء والاعتصام، والدعاء، والمناجاة، والاطراح على عتبة القوي الغني، الجواد الكريم، الرءوف الرحيم، الحافظ، المانع، المعطي، الباذل، العليم، الخبير، السميع، المجيب، واستجابة لغريزة الشكر والوفاء، وغريزة الحب، والحنان، وغريزة الخضوع، والتواضع، والعبودية، والتذلل، فهو – أي المصلي – في ذلك كالسمك لا يعيش إلا في الماء، وإذا أخرج من الماء لم يزل في حاجة إلى الماء وفي حنين، وفي فرار والتجاء إليه، وذلك معنى قول الرسول ﷺ: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[1]، وقوله ﷺ لمؤذنه بلال: «**يا بلال أقم الصلاة، أرحنا بها**»[2].

إذا عرف المصلي ذلك فإنه سيقبل على الصلاة، بحب، واعتزاز، وخفة وهمة، ونشاط، وسيكون ذلك حافزاً له على الإحسان في صلاته لتكون صلاة صالحة تصلح بصلاحها أعماله في الدنيا، والآخرة.

فالعلاقة بين المصلي وصلاته هي علاقة وطيدة، علاقة الحبيب بمن يحبه في أسمى وأجمل وأرقى ما يكون الحب، والاعتزاز بهذا الحب، ففي الصلاة يجد المصلي ذاته وكيانه، ويجد أصله ونسبه، وانتماءه الحقيقي، ويجد عواطفه، وأشواقه، ومشاعره، وأحاسيسه، وفيها يجد إيمانه، فالصلاة (أقرب إلى المؤمن، وأكثر إيواء، وأسرع نجدة،

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سنن أبي داود رقم (4985) وانظر فيما تقدم: الأركان الأربعة (29).

وإسعافاً، وأسخى، وأحنى، وأعطف عليه من حجر الأم الرءوم الحنون على الطفل الشريد، اليتيم الضائع، الضعيف العاجز كلما عوكس، أو هدد، و كلما أصابه الروع أو الفزع، أو مسه الجوع أو العطش آوى إلى أمه فرمى نفسه في أحضانها، أو تشبث بأذيالها، كذلك الصلاة معقل المسلم وملجؤه الذي يأوي إليه، والعروة الوثقى التي يعتصم بها، والحبل الممدود بينه وبين ربه الذي يتعلق به، وهو غذاء الروح، وبلسم الجروح، ودواء النفوس، وإغاثة الملهوف، وأمان الخائف، وقوة الضعيف، وسلاح الأعزل) [1].

ولذلك كان حنين الصحابة ﷺ إلى الصلاة كبيراً، وحبهم لها عظيماً، واعتزازهم بها قوياً، فكانوا يؤثرونها على كل محبوب إلى النفس، فهي أحب إليهم من أولادهم.

نعم، إذا عرف المصلي هذه المعاني وسواها تعلقت نفسه بالصلاة، محبة لها، واعتزازاً بها، وحرصاً على فعلها في صورة صالحة جميلة. فلا صلاح للأعمال في الدنيا والآخرة إلا بصلاح الصلاة، ولذلك فهي جديرة بأن تكون أول الأعمال التي يحاسب عليها العبد يوم القيامة، فنسأل الله السداد في أعمالها، وأقوالها، وأحوالها، وصلاح النية فيها، والحب لها.

واحد وعشرون: ومما يدل على شرفها وفضلها: أنها خير أعمال المؤمن، وأن أفضل العمل أداؤها لوقتها، روى عبدالله بن مسعود ﷺ أنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ فقال: «**الصلاة لميقاتها**» أخرجه مسلم [2].

وروى ثوبان ﷺ مولى رسول الله ﷺ عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**استقيموا، ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة**»[3].

---

(1) الأركان الأربعة (29-30).

(2) رقم (85).

(3) رواه الدارمي في سننه (1/ 174) برقم (655)، وابن ماجه في سننه (1/ 101) برقم (277)، وأحمد

إن مما تقدم من الحديث عن مكانة الصلاة آنفاً مما اشتمل على بيان المصطفى ﷺ لفضل الصلاة وشأنها، بأنها من أفضل الأعمال، وأن أفضل العمل أداؤها لوقتها، لهو أمر يجعلنا نقف عند هذا البيان النبوي الكريم، نستلهم بعض أبعاده، ودلالاته، فهو بيان من لا ينطق عن الهوى ﷺ. نعم إن الصلاة هي أفضل العمل، وأداؤها لوقتها أفضل العمل كذلك، لأن الصلاة هي حياة الأعمال، وهي حياة الإيمان الدالة عليه، فهي بالإضافة إلى أن أعمالها كلها توحيد وتعظيم لله تعالى كما بينا فيما مضى، فهي صلة، مستمرة بين العبد وربه، فرضها الله سبحانه على عباده المؤمنين خمس مرات في اليوم والليلة، رحمة بهم، وذلك أنه سبحانه ميز الإنسان من بين سائر المخلوقات، بشرف العقل، والتكليف بناء على هذا الشرف، فكان بذلك أحق من جميع المخلوقات بأن يكون في عبادة دائمة لا انقطاع لها من قيام وركوع، وسجود، ومن حمد، وتسبيح، وذكر لا يفتر عنه لسانه، فكانت هذه الصلوات الخمس بأوقاتها، وركعاتها كما يقول العلامة أبو الحسن الندوي: (وجبات روحية، وحقناً صحية شرعها الخلاق العظيم، المبدع الحكيم، الذي ليس طبيب النفوس فحسب، بل هو خالقها العليم، وصانعها الحكيم كذلك، فلا بد من الإيمان والخضوع لحكمتها، وتشريعها ولا بد من التمسك بها، والعض عليها بالنواجذ، والإتيان بها في أوقاتها، التي لا تعلم أسرارها، وما يظهر فيها من تجليات، وإشراقات، وما يتنزل فيها من بركات ورحمات) [1].

ولشرف الصلاة ومكانتها عند الله تعالى، جاءت أوقاتها من أحب الأوقات إلى الله تعالى، كما بينا فيما مضى.

اثنان وعشرون: أن الصلاة تجتث الصفات السلبية في النفس. قال تعالى: ﴿ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ

في مسنده (5/ 276، 282)، والحاكم في المستدرك (1/ 220) برقم (447، 448، 449) وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(1) الأركان الأربعة (24).

صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[1] فهي ميدان تتربى فيه نفس المؤمن على صفات، و معان نبيلة كريمة، بعد أن تتخلص مما يضادها، قال ابن قيم : (ولما امتحن الله سبحانه عبده بالشهوة وأشباهها من داخل فيه وخارج عنه اقتضت تمام رحمته وإحسانه إليه أن هيأ له مأدبة قد جمعت من جميع الألوان والتحف والخلع والعطايا، ودعاه إليها كل يوم خمس مرات، وجعل في كل لون من ألوان تلك المأدبة لذة ومنفعة ومصلحة ووقاراً لهذا العبد الذي قد دعاه إلى تلك المأدبة ليست في اللون الآخر لتكمل لذة عبده في كل لون من ألوان العبودية، ويكرمه بكل صنف من أصناف الكرامة، ويكون كل فعل من أفعال تلك العبودية مكفراً لمذموم كان يكرهه بإزائه، ويثيبه عليه نوراً خاصاً، فإن الصلاة نور وقوة في قلبه وجوارحه وسعة في رزقه ومحبة في العباد له)[2]، وذلك أن الصلاة هي ساحة أمن وأمان، وإيمان، يجد فيها المؤمن كل ما ينشده، من الخير، والعزة، والكرامة، والكرم، والأمن والإيمان.

إن الإنسان من حيث هو إنسان – إلا من رحم الله تعالى – قد جبل على صفات سلبية، مثل الهلع، والخوف، والشح، والطمع، ولو ترك لهذه الصفات السلبية، ومثلها في نفسه، لهلك، وأهلك غيره، ولكن الله تعالى رحم هذا الإنسان، فلم يتركه لصفاته السلبية تهلكه، فأرسل إليه رسله يدلونه على الإيمان، وميادينه، فالإيمان هو الذي ينصلح به حال هذا الإنسان ظاهراً، وباطناً، وتتربى به نفسه.

والصلاة إيمان، وتوحيد، وعبودية، وطاعة لله سبحانه، وتطهير وتثبيت، وتقوية، وتزكية لنفوس المؤمنين، جاءت مفروضة خمس مرات في اليوم والليلة، لغايات شريفة نبيلة لا يحيط بعلمها إلا الله تعالى، ولا شك أن تطهير النفس وتزكيتها من بين هذه الغايات، وذلك أن النفس البشرية غريبة عجيبة في سلوكها، و مفاجآتها،

---

(1) سورة سأل سائل: (19 إلى 23).

(2) أسرار الصلاة لابن قيم (57).

وتلونها، وهي لا تقف عند حد في ذلك. ولكنها بالإيمان ينضبط سلوكها ويقف تلونها، وتقل مفاجآتها، وتختفي فيها صفاتها السلبية، فكانت الصلاة بتكررها خمس مرات جرعة إيمانية قوية تعالج في النفس أمراضها، وسلبياتها الظاهرة، والباطنة، ومن ذلك علاج صفات البخل، والجزع، والهلع. وهي صفات مكينة في النفس البشرية، فالبخل بالمال، ومنعه عند الحصول عليه، والجزع عند حصول الشر من الصفات اللصيقة بالإنسان، إلا من رحم الله تعالى، وهما صفتان مهلكتان لأن مدارهما على سوء الظن بالله تعالى، ولذلك كان الكرم مفتاحاً لكل خير في الإنسان، وكان البخل والشح فيه مفتاحاً لكل الشرور، فكانت الصلاة علاجاً، وشفاء، لأنواع الشر في النفس، من بخل، وجزع، وكبر، ولؤم، وشح، وسواها، فالصلاة ميدان تكرم فيه نفس المؤمن بكثرة القنوت، والمناجاة، والركوع، والسجود لله الكريم سبحانه، ومن كرمت نفسه بطاعة ربها، كرمت يداه بالبذل والعطاء لمحاويج المسلمين، وإن دور الصلاة في علاج أمراض النفس الظاهرة والباطنة، وشفائها لهو ميدان يحتاج من أهل العلم إلى البحث فيه، ودراسة أسراره، وأبعاده، واستخراج منافعه، حتى يعم النفع بها.

ثلاث وعشرون: أنها عامل هام وفعال في اكتساب الصفات الطيبة وتقويتها، ومن هذه الصفات صفة الكرم، والإنفاق في سبيل الله تعالى، ولا شك أن صفة الإنفاق في سبيل الله تعالى متفرعة، وناشئة عن صفة الكرم التي منشؤها حسن الظن بالله تعالى، وما أجمل الإنسان، حين يكون حسن الظن بربه، وهي صفة كريمة نبيلة يتفرع عنها كل خير في هذا الإنسان. وما أقبح هذا الإنسان، وأظلم نفسه حين يكون سيء الظن بربه، فالبخل، والهلع، والجبن، والجزع، والخوف، وما ينشأ عنها من صفات ذميمة كلها وسواها ميكروبات فتاكة في النفس الإنسانية تنشأ عن بؤرة الصديد الأساسية في هذه النفس، وهي سوء الظن بالله تعالى. ولذلك جاء فرض الصلاة

تطهيراً للنفس من الصفات الذميمة، وإحلال الصفات الكريمة مكانها.

وقد بين الله تعالى في كتابه الكريم أثر الصلاة الفاعل في اكتساب الصفات النبيلة، فجاء ذكر إقامة الصلاة في القرآن الكريم مقترناً بالإنفاق في سبيل الله تعالى في مواضع كثيرة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾[1]، كما جاء ذكر إقامة الصلاة مقترناً بصفات أخرى كريمة في القرآن كثيراً، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[2].

ففي هذه الآيات الكريمة يتضح لنا أثر الصلاة الفاعل في اكتساب الصفات النبيلة، ومن هذه الصفات: الإعراض عن اللغو، وفعل الزكاة، وحفظ الفروج عن الحرام، وحفظ الأمانة والعهد، والمحافظة على الصلوات، ولما ورثتهم الصلاة هذه الصفات الكريمة، وتفاعلوا معها، وانفعلوا بها، كانوا جديرين بوراثة جنة الفردوس وراثة خالدة دائمة.

ولا شك أن الخشوع في الصلاة دليل على النجاح فيها، ولا يروم ذلك إلا المؤمنون، وهم المفلحون بذلك.

والنجاح في الصلاة بالخشوع فيها دليل على ترويض النفس، وتهذيبها، وتربيتها على طريق الإحسان فيها، ومن وفق إلى هذا الإحسان، وصبر عليه، وحافظ عليه فهو بالتالي سيوفق إلى مقام الخشوع، وذلك سيقوده إلى النجاح في السيطرة على نفسه،

---

(1) سورة البقرة: (1-2-3).

(2) سورة المؤمنون: (1 إلى 11).

فيقودها إلى كل ما فيه خيرها، وصلاحها، فيصبح قادراً على الإعراض عن اللغو، واللغو هو كل ما لا خير فيه، من الأفعال، والأقوال، والأحوال.

ولا شك أن القادرين على توجيه الحياة، وحركة التاريخ، والتأثير فيهما، توجيهاً وتأثيراً نافعين غير ضارين هم الذين استطاعوا أن يسيطروا على أنفسهم، ويضبطوا حركتهم تجاه ما يحيط بهم، من مظاهر الحياة المتنوعة، فهم ليسوا ريشة في مهب رياح الشهوات والتوسع في المباحات، وميولات النفس اللاغية. والمؤمنون الخاشعون في صلاتهم هم القادرون على الإعراض عن اللغو، برغم كل ما يحيط به، ويغلفه من زينة، وبهرج، وإغراء، ونفوس هؤلاء المؤمنين المصلين هي نفوس غزيزة كريمة أبية محلقة في سماء المروءة، والكرامة، تعانق معالي الأشياء، وتتسامى عن صغارها، وجاء وصفهم بالإعراض عن اللغو برغم ما يحيط به، ويغلفه من مغريات ليدل ذلك على المعاني والصفات الكريمة التي تتحلى بها نفوسهم، ففي الإعراض ترك، وهجر، وتباعد في عزة، وإباء واستعلاء بقيم الإيمان العالية على كل ما هو تافه.

وهكذا يتضح لنا شأن الصلاة ودورها الفاعل في تقوية الإرادة، في مواجهة التحديات والمغريات مهما كان بريقها، ولمعانها، ومهما كان تهافت الآخرين عليها. والعجيب أن صفة الإعراض عن اللغو هي ثاني صفة من الصفات التي وصف بها هؤلاء المؤمنون المصلون بعد وصفهم بالخشوع في صلاتهم، ولا شك أن لذلك دلالاته وإيحاآته القريبة، والبعيدة، فالخشوع استشعار القلوب لرهبة الموقف بين يدي الله تعالى، فتسكن، وتخشع، فيسري الخشوع منها إلى الجوارح، والملامح، والحركات فتختفي من أذهان أصحابها جميع الشواغل، والاهتمامات، ولا يبقى منها في تلك القلوب إلا ما يتصل بتعظيم وإجلال موقفها بين يدي الله تعالى والرهبة له، والخوف منه، والخشية له جل جلاله، ولذلك تجد أصحاب هذه القلوب في صلاتهم أسكن وأهدأ، ما يكونون، فالخشوع هو السكون في مذلة واحتياج، وسكون الجوارح دليل

على خشوع القلب، ولذلك يصدق على الرجل الذي يكثر من الحركات في صلاته قول من قال: (لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه)[1].

والإعراض عن اللغو في الحياة هو ثمرة الإعراض عن لغو الجوارح في الصلاة، أي أن الإعراض عن اللغو هو ثمرة الخشوع في الصلاة، واللغو يشمل لغو القول، ولغو الفعل، ولغو السلوك، والمظاهر، ولغو الاهتمام، والعواطف، والشعور، وهذا اللغو لا مكان له في قلوب المؤمنين الخاشعين في صلاتهم، فلهذه القلوب الكبيرة العظيمة في اهتمامها، وشعورها، ونظرتها إلى الكون، والحياة، والأحياء، ما يشغلها عن هذا اللغو، ولها في ذكر الله تعالى، وتعظيم أمره، والصبر على ذلك، وتدبر آياته الظاهرة، والخفية في الأنفس والأكوان، ولها في مسئوليتها من تكاليف العقيدة، والإيمان، والإسلام، والإحسان، وحسن السلوك، والثبات على دين الله تعالى، والوفاء بمسئوليتها تجاه الأمانة التي حملتها بكل تكاليفها ما يشغلها عن كل لغو أو عبث.

إن تكاليف هذه الأمانة لا تنتهي، ولا يغفل عنها المؤمنون، ولا يعفون منها، فهي مفروضة عليهم فرض عين، أو فرض كفاية، وفيها الكفاية لاستغراق الجهد البشري، والعمر البشري، والطاقة البشرية محدودة، وهذه الطاقة إما أن تنفق فيما يصلح الحياة وينميها ويرقيها، أو تنفق في اللغو الذي لا خير فيه، والذي لا يعود على الحياة بخير، ولكن المؤمن وحده هو المدفوع بحكم إيمانه، ومقتضيات هذا الإيمان وبحكم عقيدته، وما تستوجبه من مسئوليات إلى أن ينفق طاقته البشرية المحدودة في البناء، والتعمير، والإصلاح.

ولا يعني ما تقدم أن يُفهم منه أن الإسلام دين يصادر الترويح الجميل الهادفة،

---

(1) رواه عبدالرزاق في المصنف (2/ 266) برقم (3308)، وابن أبي شيبة في المصنف (2/ 86) برقم (6787) والبيهقي في السنن الكبرى (2/ 285) برقم (3365) قولاً لسعيد بن المسيب.

ويحارب البسمة، واللطافة والجمال في حياة أتباعه. كلا وألف كلا، بل إن دين الإسلام العظيم هو دين البسمة، واللطافة والجمال، والذوق والأدب، والترويح الجميل الهادف، ولكنه بكل حال يحارب اللغو وكل ما يؤدي إلى تفريغ الحياة من معناها الصحيح الكريم والذين بينه الله تعالى في كتابه العزيز بقوله سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] والعبادة لله تعالى في هذه الحياة هي إعمار الحياة بكل معنى كريم، وبكل فعل جليل، وبكل قول جميل، وبكل سلوك سوي نبيل، ولن يكون ذلك كله كذلك إلا إذا كان يصب في دائرة الطاعة والعبادة لله تعالى، ومرضاته. والإنسان في هذه الحياة الدنيا يعيش بين طريقين لا ثالث لهما: طريق الخير، وما يؤدي إليه، وطريق الشر، وما يؤدي إليه، وقول الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾[2] يدل على هذا المعنى، فالصلاة، والخشوع فيها هي سبيل المؤمنين، وهي الجد والالتزام، وتربية النفس وأطرها على سلوك طريق الخير، والصلاة المفروضة تؤدى جماعة في بيوت الله تعالى التي جعلها الله سبحانه مكاناً يذكر فيها اسمه، وأمر بتطهيرها، وإعمارها بالطاعة له جل جلاله، ومن لم يأخذ نفسه بأطرها على أداء الصلوات المفروضة في هذه البيوت الطاهرة، فليس أمامه إلا أن تقوده نفسه إلى طريق اللغو، وهو طريق من طرق الشر، وهكذا يحس المؤمن بالفارق بين الجو الذي يعيشه في بيوت الله تعالى، وبين الجو الذي يجده في الشارع بعد الخروج من المسجد، فالشارع في كل زمان ومكان عامر باللغو، والمؤمنون وحدهم عندهم القدرة عن الإعراض عنه بكل إباء وعزة وثبات.

إن القرآن الكريم كثيراً ما يقرن بين صفة إقامة الصلاة، وبين صفة إيتاء الزكاة حين يكون الحديث عن صفات المؤمنين، دليلاً على التلازم بين هاتين الصفتين، ودليلاً

---

(1) سورة الذاريات: (56).

(2) سورة المؤمنون: (1 إلى 3).

على أن من أقام أمره بنجاح فيما يتصل بمسئوليته تجاه ربه وخالقه سبحانه وتعالى، فهو قمنٌ أن يقيم أمره بنجاح فيما يتصل بمسئوليته تجاه إخوانه المسلمين، فيؤدي إليهم فرض الله تعالى عليه في ماله وكسبه، وهكذا يحس الناس في كل زمان ومكان بقيمة الإيمان، وأهله المؤمنين، وأنهم قطب الرحى في هذه الحياة، فهم الناجحون في ميدان الإحسان فيما بينهم وبين ربهم وخالقهم سبحانه وتعالى، وهم الناجحون في ذات الوقت في ميدان الإحسان فيما بينهم وبين خلق الله جل وعلا. وجاء قول الله تعالى في سورة «المؤمنون»: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾[1] بياناً شافياً جميلاً، ووصفاً كريما للمؤمنين وفاعليتهم في الحياة، فهم لم ينجحوا في ميدان إقامة الصلاة، والخشوع فيها، وفي ميدان الإعراض عن اللغو، ولكنهم نجحوا وبكل جدارة وقوة في ميدان البذل والعطاء، ولو جاء وصفهم في القرآن الكريم مقتصراً فقط على إقامة الصلاة، والخشوع فيها، والإعراض عن اللغو، لكان في ذلك إشادة بنجاحهم في صفات تعود عليهم فقط بالنفع، ولا يتعدى نفعها إلى غيرهم، ولأمكن القول والحالة هذه بأن المؤمنين يعيشون لأنفسهم فقط، ولكن وصفهم بفعل الزكاة مع وصفهم بما سبق من صفات إقامة الصلاة، والخشوع فيها، والإعراض عن اللغو بيان واصف كاشف، ودليل واضح على أن المؤمنين ليسوا من يعيش لنفسه، ولكن الحياة عندهم هي العمل الفاعل والهادف في مجالاتها المتعددة الظاهرة، والباطنة، فيما يتصل بنفع أنفسهم، وتربيتها ونجاحها في ميدان الإيمان بالله تعالى، وتوحيده ومعرفته، وطاعته، وتحقيق أمره في هذه الحياة، وفيما يتصل بنفع إخوانهم الآخرين اهتماماً وعناية بهم، وإيصالاً لكل خير إليهم.

ولا شك أن إخراج الزكاة دليل على تربية النفس على طريق الاستجابة لأمر الله سبحانه، وإيثارها لمرضاته تعالى، فالمال يحبه الناس جميعاً، مؤمنهم، وكافرهم ، طائعهم

---

(١) سورة المؤمنون: (4).

وعاصيهم ، خيرهم، وشريرهم، فهو أثير عند بني الإنسان. قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[1] ، والخير هنا هو المال، ومن الناس من يشكل المال في حياته كل شيء، فهو يسرق، ويغدر، ويغش، ويغصب، ويخون دينه، ووطنه من أجل المال، فهو لا يرى لنفسه، ولا لغيره قيمة إلا بالمال، وهذا النوع من الناس نوع سيء فاسد، ويفسد بفساده آخرون.

والمؤمنون الذين جعلهم الله تعالى واحة خير وأمن وعطاء في هذه الحياة يتعاملون مع المال تعاملاً فيه عقل ودين ومرءوة ورشد وفهم واتزان في قوة نفس، وعفتها وجمالها، وثباتها، فالمال في ميزانهم لا يعدو أن يكون وسيلة يمكن عن طريقها تحقيق نفع كثير، وخير وفير بما يرضي الله تعالى ويرضي رسوله ﷺ على مستوى الفرد والأسرة، والمجتمع، والأمة، فهم بذلك يبذلونه طيبة به نفوسهم، عبودية وطاعة لله تعالى، فالزكاة طهارة للقلب والنفس، والمال، طهارة للقلب والنفس من الشح، واستعلاء على حب الذات، وانتصار على ضعف النفس، ووسوسة الشيطان بالفقر، وثقة كاملة في موعود الله تعالى الحق بالعوض والجزاء، وطهارة، ونماء، وحفظ للمال، وهي صيانة للأمة من الخلل الذي ينشئه الفقر والعوز في جانب، والترف في جانب آخر، وهي تأمين اجتماعي لأفراد الأمة، وهي ضمان اجتماعي للعاجزين، وهي وقاية للأمة كلها من التفكك والانحلال.

وبهذا كله وسواه تظهر قيمة المؤمنين الفاعلة الهادفة، وشأنهم العظيم في الحياة حولهم، فهم المقيمون للصلاة الخاشعون فيها، وصلاتهم تعرف بخشوعهم فيها، فكأنها صلاة خاصة بهم لا يحسنها غيرهم، ولذلك أضاف المولى سبحانه الصلاة إليهم فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾[2] وكان يمكن أن يقال مثلاً: الذين هم في

---

(1) سورة العاديات: (8).

(2) سورة المؤمنون: (2).

الصلاة خاشعون، وفي عملهم هذا إشاعة للقدوة الحسنة في مجتمعهم.

وفي موقفهم بالإعراض عن لغو الحياة حولهم دليل على قوة إرادتهم، وثبات قلوبهم على الحق، وعلو همتهم، فهم الذين تربت أنفسهم في ساحة الصلاة، والخشوع فيها، فأصبحت نفوساً مهيئة بذلك للإعراض عن لغو الحياة، و عن كل تافه من القول، والفعل، والسلوك، وعن كل ما لا خير فيه.

والنجاح في هذين الميدانين ليس أمراً يسيراً، ولكنه أمر ترومه النفوس التي تعلقت بالله تعالى، وآثرت ما عنده على ما عند سواه، فأحسنت العمل، واستقامت على طريقه بنية صادقة، و همة مخلصة عالية، لا تعرف الملل، أو الكسل، فكرمت بذلك، وأصبحت نفوساً كريمة في مشاعرها، وعواطفها، وفي أقوالها، وأفعالها، وفي أخذها وعطائها. ومن كرمت بالطاعة والمحبة لله نفسه، فستكرم بالعطاء يداه عن سخاء، وسماحة، وكرامة، ولذلك كان هؤلاء المؤمنون المقيمون للصلاة الخاشعون فيها فاعلين للزكاة.

والتعبير القرآني الكريم بوصف هؤلاء المؤمنين بأنهم «للزكاة فاعلون»، أي وصفهم بفعل الزكاة دون أدائها، أمر له دلالاته وإيحاآته القريبة والبعيدة المتصلة بمكانة هؤلاء المؤمنين، وهو يحمل في طياته الإشادة بسلامة صدورهم، ونقاء نفوسهم، وعلو همتهم، وقوة قلوبهم، وصدق نيتهم في فعل ما يرضي الله تعالى، ويرضي رسوله ﷺ.

قال العلامة الزمخشري في تفسيره: (الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى، فالعين: القدر الذي يخرجه المزكي من النصاب إلى الفقير، والمعنى فعل المزكي الذي هو التزكية، وهو الذي أراده الله، فجعل المزكين فاعلين له، ولا يسوغ فيه غيره، لأنه ما من مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل، ويقال لمحدثه: فاعل، تقول للضارب: فاعل

الضرب، وللقاتل: فاعل القتل، وللمزكي: فاعل التزكية)[1].

وقال العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره: (وإنما أوثر هذا الاسم الأعم وهو «فاعلون» لأن مادة «ف ع ل» مشتهرة في إسداء المعروف)[2].

ولفظ «فاعلون» يدل على الاهتمام، والقوة، والإخلاص، والحب في الأداء، ويفهم من كلام ابن عطية في تفسيره[3] أن لفظ «فاعلون» يدل على شأن المؤمنين في فعل الزكي من الأخلاق، والأفعال الكريمة، فهم فاعلون لكل شيء زكي، وذلك يشمل الزكاة وسواها. ولكن تبقى دلالات إيثار وصف «فاعلون» دون سواه أوسع مدى، وأعظم دلالة على همة المؤمنين، وكرم نفوسهم، ومحبتهم لكل فعل فيه مرضاة الله تعالى، ومرضاة رسوله ﷺ.

إن للصلاة أثراً عظيماً في اكتساب الفضائل، والابتعاد عن الرذائل، وقد بينا فيما مضى أثر الصلاة في الإعراض عن كل ما لا خير فيه من اللغو وسواه، كما بينا أثرها في أداء الزكاة، وذلك من خلال الحديث عن الآيات الواردة في أول سورة «المؤمنون»، فالصلاة المقبولة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، وتقوده إلى الأفعال، والأحوال، والأقوال الكريمة، وجاءت الآيات من تلك السورة تبين هذه المعاني، وتدل عليها، فوصف فيها المؤمنون المقيمون للصلاة، بالإعراض عن اللغو، وبفعل الزكاة، وبحفظ فروجهم عما حرمه الله تعالى، وبمراعاة العهد والأمانة بالحفظ والأداء، وبالمحافظة على أوقات صلواتهم، وتلك صفات عالية كريمة عند الله تعالى، أهلتهم لوراثة جنة الفردوس، فهم الوارثون لها، وهم فيها خالدون، وذلك دليل على فضلهم ومكانتهم عند ربهم عز جلاله، ودليل على محبته سبحانه لتلك الصفات فيهم والتي هي طريق

---

(1) تفسير الزمخشري (3/ 43).

(2) تفسير التحرير والتنوير (18/ 12).

(3) المحرر الوجيز (10/ 331).

فلاحهم، وصعودهم إلى الفردوس الأعلى في جنة الخلود حيث المقام الصدق عند المليك المقتدر عز وجل، والفضل كله منه سبحانه وتعالى، يؤتيه من يشاء من عباده، وهو جل جلاله واسع عليم.

أربع وعشرون: ومما يدل على شرف الصلاة ومكانتها وفضلها: أن المصلي يكتسب احترام الناس وتقديرهم، وذلك أن الناس بفطرتهم يحبون الإنسان الصالح المستقيم، ويكرهون الفاسد المنحرف، فالمصلي خاصة إذا كان شاباً يحبه الناس أهل العقل والبصيرة ويرتاحون إليه ، ويجد عندهم الود له ، وذلك أن الله تعالى قضى أن يعز من أطاعه ، ويذل من عصاه ، وأن يجعل للمؤمنين وداً في السماء وفي الأرض، ويجعل لهم من أمرهم يسراً، ورشداً وفرجاً، والصلاة هي شامة الطهر، والإيمان، والصلاح، في جبين المؤمنين، فما أقامها إلا مؤمن، وما حافظ عليها إلا تقي. قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾[2] وقال عز من قائل: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾[3] ، فالصلاة تضفي على صاحبها جمالاً، ونوراً، وبهجة، وأنساً، وانشراحاً، وتكسبه قلباً رقيقاً يحب المؤمنين، ويعطف على خلق الله ويرحمهم، ويحسن إليهم، وهم بالتالي يأنسون إليه، ويثقون في أمانته، ويرتاحون إلى أريحيته ولطفه في التعامل، وله في نفوسهم الود والاحترام.

خمس وعشرون: ومما يدل على شرف الصلاة وفضلها: أن المصلي صاحب أمانة وعهد، أي أنه يحافظ على الأمانة والعهد ويرعاهما، وذلك أن الصلاة هي شامة المؤمنين في كل زمان ومكان، والعلاقة بين إيمان المؤمنين وبين حفظ العهد والأمانة

---

(1) سورة مريم: (96).
(2) سورة الطلاق: (2).
(3) سورة الطلاق: (4).

علاقة تلازم، فما حافظ عليها إلا مؤمن، وقد وصف الله تعالى في كتابه الكريم عباده المؤمنين الذين يقيمون الصلاة، ويحافظون عليها، ويداومون على ذلك بحفظ الأمانة والعهد، ومراعاتها قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[2] ومعلوم أن هذه الآيات وردت في سورتي «المؤمنون» و«سأل سائل» ضمن آيات أخرى تحمل بعض أوصاف المؤمنين، وقد صدرت كلها في السورتين بصفة إقامة الصلاة والخشوع فيها، وبصفة المداومة على الصلاة، وقد بين النبي ﷺ أن الأمانة والعهد من الإيمان فقال: «**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**»[3] وهو حديث صحيح أخرجه أحمد وغيره.

ومعلوم أن الصلاة أمانة كبرى وعظيمة، ما أداها، وحفظها، وحافظ عليها إلا مؤمن، والفرائض التي فرضها الله تعالى على عباده المؤمنين هي أمانة في أعناقهم، وهم الأوفياء في الحفاظ عليها، وتأتي الصلاة في مقدمة هذه الفرائض فهي أهم وأعظم الأمانات، بعد أمانة شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ولذلك فإن المؤمن يملك المؤهلات التي تجعله أهلاً للمحافظة على الأمانة، والعهد، والوفاء بهما، وذلك دليل على أثر الصلاة وفاعليتها في بناء النفس، وقوتها، وسماحتها، وعلو همتها لتصبح نفساً تهتم بمعالي الأشياء وأشرافها، ولا تهتم بأسافلها، والحقير منها.

والحفاظ على الأمانة، والعهد دليل واضح على شرف نفوس مقيمي الصلاة، وعلو همتهم، وكم يسعد المجتمع، ويستقر بوجود المؤمنين الذين يقيمون الصلاة، إنه بلا شك يسعد، ويستقر، وتحفظ فيه الأمانات والعهود، فتسوده بذلك حياة الطمأنينة،

---

(1) سورة المؤمنون: (8-9).

(2) سورة سأل سائل: (32-33-34).

(3) رواه أحمد في مسنده (3/ 135، 154، 251) من حديث أنس.

والثقة بين أفراده، وينعكس أثر ذلك على مجالات حياته كلها خيراً، وأمناً، واستقراراً، ورخاء، وتقدماً، وذلك يقودنا إلى التأكيد على أن إقامة الصلاة في المجتمع الإسلامي من أقوى العوامل في استقراره، وشيوع الخير في أرجائه، والعكس صحيح.

ست وعشرون: ومن فضل الصلاة وشرفها عند الله تعالى: أن كل خطوة يخطوها المصلي إلى الصلاة المفروضة في المسجد، يكتب الله تعالى له بها حسنة، ويمحو بها عنه سيئة. روى أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا توضأ (الرجل) فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد، لا يريد إلا الصلاة فلم يخط خطوة إلا رُفع له بها درجة، و حُط عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد**»[1]، وهو جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم.

وعن سعيد بن المسيب ﷺ قال: حضر رجلاً من الأنصار الموتُ فقال: إني محدثكم حديثاً، ما أحدثكموه إلا احتساباً؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا توضأ أحدكم، فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى الصلاة، لم يرفع قدمه اليمنى إلا كتب الله عز وجل له حسنة، ولم يضع قدمه اليسرى إلا حط الله عز وجل عنه خطيئة.**» الحديث[2].

إن المؤمن حين يمشي إلى المسجد ليؤدي فيه صلاة الجماعة، ليؤكد عملياً عبوديته لله تعالى، و كلما كان العمل أدل على العبودية لله سبحانه كلما كان الثواب عليه كبيراً، والأجر عظيماً، ففي كل خطوة يخطوها الساعي إلى الصلاة في المسجد يلقى بها عند الله تعالى خيراً كثيراً، فيرفع بها من درجاته، ويحط بها من سيئاته، والفضل لله أولاً وآخراً، وهو وحده ذو الفضل العظيم.

سبع وعشرون: ومما يدل على شرف الصلاة ومكانتها: أنها لا بد أن يتطهر لها، فهي لا تصح إلا بالطهارة سواء كانت طهارة مائية «الوضوء» أو طهارة

---

(1) رواه البخاري في صحيحه (1/ 181) برقم (477)، ومسلم في صحيحه (1/ 459) برقم (649) واللفظ له.

(2) سنن أبي داود (1/ 154) برقم (563).

ترابية «التيمم» قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ الآية[2].

والصلاة هي المظهر العملي الذي يدل على دين وإيمان صاحبها والذي يعكس بالتالي تعظيمه لشأن هذه الفريضة العظيمة، فتراه يجمع بين الطهارة الشرعية، والطهارة المادية، وذلك بنظافة مظهره، فيُرى نظيف الثياب والشعر، طيب الرائحة، جميل المظهر، يهتم بالاستياك لصلاته. ونحن إذا عرفنا شأن الوضوء عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ، وأنه سبب لمغفرة الذنوب، ونوال رحمة الله تعالى، وأنه شطر الإيمان، وأنه من العبادات التي تغسل بها الخطايا غسلاً، وترفع بها الدرجات، وتزاد الحسنات، وأنه سبب لحصول النور والغرة والتحجيل للمؤمن يوم القيامة، إذا عرفنا ذلك، وعرفنا أن الوضوء هو وسيلة إلى الصلاة لأدركنا شرف ومكانة الغاية التي هي الصلاة، والتي يعد الوضوء وسيلة إليها، فإذا كانت كل هذه الخيرات والعطايا من الله تعالى مترتبة على الوضوء وهو وسيلة، فكيف بالغاية التي يتوصل إليها بهذه الوسيلة العظيمة؟ فدل ذلك على شرف ومكانة الصلاة، وأنها فريضة عالية الشأن والمكانة عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ.

والطهارة من شروط الصلاة، فلا بد فيها من الطهارة بنوعيها: الحسية، والمعنوية أي الطهارة الشرعية، والطهارة المادية، فلا بد من طهارة المكان، والبدن، والثياب، والطهارة نوعان: طهارة إجزاء، وطهارة كمال، والكُمَّل هم الذين يحرصون على طهارة الكمال بما يشمل الزيادة على طهارة الإجزاء، من الطيب، والسواك، وحسن الهيئة وجمالها، وما أجمل هيئة المؤمنين وهم يتراصون في صفوفهم في المساجد، في ثياب

---

(1) سورة المائدة: (6).

(2) سورة النساء: (43).

نظيفة، فتتعانق هذه الهيئة الجميلة مع جمال وشرف المكان الذي يصلون فيه، ولعل ذلك يقودنا إلى الحديث عن الفقرة:

الثامنة والعشرين والتي نستدل بها على شرف الصلاة ومكانتها، وهي المتعلقة ببناء المساجد للصلاة، وذلك دليل على شرفها ومكانتها، فالمساجد هي بيوت الله تعالى في الأرض تضيء لأهل السماء، كما تضيء النجوم لأهل الأرض، أخرجه في مجمع الزوائد[1] عن ابن عباس. قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾[2] الآية، وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[3].

والمساجد لها شأنها ومكانتها عند الله تعالى، وعند رسوله ﷺ وعند المؤمنين، وذلك لأنها المكان الذي تؤدى فيه أشرف وأعظم فرائض الإسلام وهي الصلاة جماعة، ولذلك نجد أن الله تعالى رتب على بناء المساجد الأجر العظيم، والثواب العميم. روى ابن ماجه في سننه بإسناد صحيح من حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال: «**من بنى لله مسجداً كمفحص قطاة، أو أصغر بنى الله له بيتا في الجنة**»[4]، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه أيضاً، ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «**من بنى لله مسجداً، ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة**»[5]، وفي صحيح البخاري في حديث طويل عن أنس أن النبي ﷺ «**أمر ببناء المساجد**»[6]، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد**

---

(1) مجمع الزوائد (2/ 7).
(2) سورة النور: (36).
(3) سورة الجن: (18).
(4) سنن ابن ماجه (1/ 244) برقم (738) وابن خزيمة في صحيحه (2/ 269) برقم (1292).
(5) صحيح ابن حبان (4/ 490) برقم (1610).
(6) صحيح البخاري (1/ 165) برقم (428) وصحيح مسلم برقم (524).

إلى الله أسواقها»[1] وجاء الحث في الإسلام على الاهتمام بالمساجد، وذلك بإعمارها حساً، ومعنى أي: بتنظيفها، وفرشها، وتطييبها، وتدفئتها في الشتاء، وتبريدها في حر الصيف وبكثرة الصلوات فيها، وقراءة القرآن وبكثرة الذكر والطاعة فيها، والاعتكاف.

والمسجد هو المكان الذي تبنى وتربى فيه روح المؤمن فهو مكان صلاته المفروضة التي يتشرف من خلالها بمناجاة ربه سبحانه وتعالى، وهو المكان الذي يظهر فيه المؤمن عبوديته لله تعالى وإيمانه به سبحانه وإلا فما الذي يحمله على المشي إلى المسجد في ضوء النهار وفي ظلام الليل خمس مرات، إن الذي يحمله على ذلك إيمانه بربه سبحانه، وإيمانه بأنه عبد لربه عليه أن يستجيب لأمره بالصلاة له في المسجد مهما كانت الظروف، ولا شك أن الذي لا يحمله إيمانه على المشي وكثرة الخطى إلى المسجد، سوف يجد نفسه ثقيلاً عاجزاً عن المشي إلى ما يرضي الله تعالى، ولن تحمله أرجله، بل ستخذله، ويخذله قلبه كذلك، ما دام إيمانه لم يرفعه إلى مستوى من يعمر مساجد الله تعالى.

إن الصلة قائمة بين عباد الله المؤمنين، وبين المسجد في كل زمان، ومكان وجد فيهما مؤمنون، وإلى قيام الساعة، وقد دلت نصوص قرآنية كريمة على هذه الصلة قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[3]، وقال عز من قائل: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾[4].

---

(1) صحيح مسلم (1/ 464) برقم (671).

(2) سورة الأعراف: (29).

(3) سورة النور: (36).

(4) سورة الجن: (18).

وعلى ذلك فإن المؤمن لا يطيق البعد عن المسجد، فهو متصل به حساً بكثرة الخطى، والمشي إليه، ومعنى حيث إن قلب المؤمن معلق بالمساجد، ومن بين السبعة الذين يظلهم الله بظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: «**ورجل قلبه معلق بالمساجد**»[1] كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، أي: أنه شديد الحب لها والملازمة للجماعة فيها، وليس معناه دوام القعود فيها، وكيف يكون ثواب من تعلق قلبه بالمسجد الحرام للصلاة والطواف فيه؟ إن فضل الله عظيم، وعطاءه واسع، يؤتي فضله من يشاء من عباده، ويرزق من يشاء منهم بغير حساب.

وحيثما حل المؤمن فإن سؤاله الأول دائماً عن المسجد، ويتخذ المؤمنون في مساجدهم وفي بيوتهم مكاناً خاصاً (محراباً) أو داراً صغيرة لصلاتهم المفروضة والنافلة. قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾[2] الآية، وقال سبحانه: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾[3] الآية، وقال عز وجل: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾[4] الآية.

تسع وعشرون: ومما يدل على فضل الصلاة وشرفها: أنها الفريضة الوحيدة التي ينادى عليها بالآذان. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[6] وجاء تحديد صيغة النداء – أي الأذان – للصلاة في السنة النبوية، وكان المسلمون حين قدموا المدينة

---

(1) صحيح مسلم (2/ 715) برقم (1031).
(2) سورة آل عمران: (37).
(3) سورة آل عمران: (39).
(4) سورة ص: (21).
(5) سورة الجمعة: (9).
(6) سورة المائدة: (58).

يجتمعون فيتحينون الصلوات، وليس ينادي بها أحد، فاهتم النبي ﷺ بأمر جمع الناس للصلاة، كيف يجمعهم لها؟ فذُكر له اتخاذ الناقوس مثل ناقوس النصارى، فلم يعجبه، وذُكر له اتخاذ قرن (أي بوق) مثل قرن اليهود، فلم يعجبه، وذكر له اتخاذ راية تنصب عند دخول وقت الصلاة، فلم يعجبه ذلك، فاهتم أحد الصحابة لهذا الأمر، وهو عبدالله بن زيد الأنصاري رضي الله عنه ، فرأى في منامه كيفية الأذان، فغدا على النبي ﷺ، فأخبره بما رأى، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**قم يا بلال، فانظر ما يأمرك به عبدالله بن زيد، فافعل، فأذن بلال**»[1].

وروى مسلم عن أبي محذورة، أن نبي الله ﷺ علمه هذا الأذان: «**الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسولُ الله، أشهد أن محمداً رسولُ الله**» ثم يعود فيقول: «**أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسولُ الله، أشهد أن محمداً رسولُ الله، حي على الصلاة** (مرتين) **حي على الفلاح** (مرتين). زاد إسحاق وهو أحد رواة هذا الحديث:«**الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله**»[2].

وروى مسلم في صحيحه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قال المؤذن: الله أكبر، الله أكبر، فقال أحدكم: الله أكبر، الله أكبر ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله. قال: أشهد أن لا إله إلا الله. ثم قال: أشهد أن محمداً ا. قال: أشهد أن محمداً رسول الله. ثم قال: حي على الصلاة. قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال: حي على الفلاح. قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال: الله أكبر. قال: الله أكبر. ثم قال: لا إله إلا الله. قال: لا إله إلا الله، من قلبه، دخل الجنة**»[3].

---

(1) سنن أبي داود (1/ 134-135) برقم (498) و(499).

(2) صحيح مسلم (1/ 287) برقم (379).

(3) صحيح مسلم (1/ 289) برقم (385).

وقد نقلت الأمة الأذان كما شرعه نبيها ﷺ، وحافظت عليه جيلاً بعد جيل حتى يومنا هذا، وسيبقى الأمر كذلك إلى أن يأذن الله تعالى بنهاية الدنيا، والله تعالى جعل صيغة الأذان بألفاظ تعكس معاني التوحيد، والعبودية الخالصة له سبحانه، وتعكس مقاصد الإسلام، وروح الدين، وذلك دليل على عظمة هذا الدين، وربانيته، فما كان للبشر جميعاً الاهتداء إلى اختراع الأذان، وألفاظه الجميلة الشريفة الكريمة. فلفظ «الله أكبر» إعلان بعظمة الله تعالى وكبريائه، وأنه أكبر من كل كبير، فهي (الكلمة البليغة الواضحة المفهومة في كل زمان، ومكان، ولكل مجتمع، وبيئة، وفرد، القوية، المدوية، المجلجلة التي يخشع أمامها الجبابرة، ويهوى لها كل صنم، ويضطرب بها كل طاغية، وطاغوت) [1] وهي الكلمة التي يفر منها الشيطان هارباً وله ضراط خوفاً وفرقاً، ولا يطيق الكفار لها سمعاً في ساحات الجهاد، ويولون مدبرين عند سماعها، وبالجملة فهي كلمة لا يطيقها شياطين الإنس والجن سلماً، وحرباً، فهي نار على الكافرين، ونور للمؤمنين في كل زمان ومكان.

وتأتي كلمة «أشهد أن لا إله إلا الله» لتدل على الحقيقة الخالدة الباقية بأنه لا إله معبود بحق إلا الله جل جلاله، وبإعلان هذه الكلمة تتهاوى أمام نورها، وتسقط أمام قوتها وعظمتها سائر الآلهة المزعومة، الظاهرة، والباطنة، فالعظمة، والرفعة، والإلهية، والعبودية لله سبحانه فهو الإله المعبود بحق، فلا إله غيره، ولا معبود بحق سواه، وهكذا تتعانق هذه الكلمة مع سالفتها «الله أكبر» لتشكلا معلماً خالداً من معالم الحكمة الإلهية العظيمة في نداء الصلاة، بحيث إنه لم يكن مجرد إعلام وتنبيه بدخول وقت الصلاة، بل إنه، وكما يقول العلامة الدهلوي : في كتابه «حجة الله البالغة»: (يضم مع ذلك أن يكون من شعائر الدين بحيث يكون النداء به على رءوس الخامل والنبيه وتنويهاً بالدين، ويكون قبوله من القوم آية انقيادهم لدين الله، فوجب أن يكون مركباً

(1) انظر: الأركان الأربعة (34).

من ذكر، ومن الشهادتين، والدعوة إلى الصلاة ليكون مصرحاً بما أريد به)[1].

وكلمة «أشهد أن محمداً رسول الله» تقرير لحقيقة نبوة سيدنا محمد ﷺ، واعتراف بها، ودليل كامل على رفع ذكره ﷺ، فلم يقرن الله تعالى في الأذان باسمه الكريم غير اسم نبيه وخاتم رسله سيدنا محمد ﷺ، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[2].

وهكذا جاء الأذان دعوة مركزة إلى الإسلام، وتعريفاً بمقاصده، وتعاليمه، قال العلامة الشيخ أبو الحسن الندوي ﷺ: (وليس لهذا النداء الذي يجمع بين الجمال والبساطة نظير في أساليب الدعوة والإعلام بالعبادات، والديانات الأخرى، إنه النداء الديني الوحيد الذي ابتعد عن كل مظهر خارجي، وعن استعانة بالآلات، والإغراءات، وجاء فيه لباب الدين، وخلاصته، إنه يضم الإعلان بعظمة الله، وكبريائه، وأنه أكبر من كل كبير، ويضم الشهادتين شهادة **(أن لا إله إلا الله)** وشهادة **(أن محمداً رسول الله)**، ثم الدعوة إلى الصلاة، وحضورها في جماعة في المسجد، ثم الإخبار بأنها وسيلة الفلاح، في الدنيا، والآخرة، وأنه لا فلاح بدونها، فأصبح بذلك كله كلمة جامعة، ودعوة كاملة، ونداء بليغاً يخاطب القلب، والعقل، ويلفت المسلم وغير المسلم، وينشط الكسلان وينبه الغافل)[3].

والأذان مع كل ما اشتمل عليه من المعاني الرفيعة، العالية التي تدل على شرفه، وفضله، وشأنه هو إعلام بالصلاة، فهو وسيلة لها، وإذا كانت الوسيلة بما ذكر من الشرف والفضل والرفعة، فكيف بما يتوسل بها إليه وهو الصلاة، ولمزيد الدلالة على شرف الصلاة، ومكانتها، فإنه لم يكتف بالأذان وسيلة للإعلام بدخول وقتها، بل كانت الإقامة بالإضافة إلى ذلك وسيلة للإعلان على إقامة الصلاة، وجاءت ألفاظ

---

(1) حجة الله البالغة (1/ 353).

(2) سورة ألم نشرح: (4).

(3) الأركان الأربعة (51).

الإقامة هي ألفاظ النداء مضافاً إليها لفظ (قد قامت الصلاة) مرتين، وذلك كله دليل بين على شرف الصلاة، ومكانتها العالية عند الله تعالى.

ثلاثون: ومما يدل على مكانة الصلاة: أنها فريضة الله على جميع الأنبياء، قال محمد بن نصر المروزي في كتابه الرائع «**تعظيم قدر الصلاة**»، والذي كان جل اعتمادنا عليه في حديثنا عن مكانة الصلاة، قال : (ومما دل الله تعالى به على تعظيم قدر الصلاة، ومباينتها لسائر الأعمال: إيجابه إياها على أنبيائه، ورسله، وإخباره عن تعظيمهم إياها، فمن ذلك أنه جل وعز قرب موسى نجياً، وكلمه تكليماً، فكأن أول ما افترض عليه بعد افتراضه عليه عبادته إقام الصلاة، ولم ينص له فريضة غيرها، فقال تبارك وتعالى مخاطباً لموسى بكلماته ليس بينه وبينه ترجمان: ﴿صَآ تَمَ لَمَا وَحَ ىٰ إِنَّنَ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾[1] فدل ذلك على عظم قدر الصلاة وفضلها على سائر الأعمال إذ لم يبدأ مناجيه وكليمه بفريضة أول منها، ثم ما أخبر عن سحرة فرعون بعد شركهم، وعنادهم إذ يحلفون بعزة فرعون متخذينه إلهاً من دون الله، ولم يأتهم رسول قبل ذلك، ولا سمعوا كتاباً، فلما أراهم موسى الآية حين ألقى عصاه، فقلبها الله حية تسعى، فالتقفت حبالهم، وعصيهم، فعلموا أن ذلك ليس بسحر، ولا يشبهه فعل بني آدم انقادوا للإيمان بالله عز وجل، فلم يلهموا طاعة يرجعون بها إلى الله، ويترضونه بها ظناً أن يغفر لهم عما كان منهم إلا السجود، وهو أعظم الصلاة. قال الله عز وجل: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾[2] فعفروا وجوههم لله في التراب خضوعاً له، فلم يجعل الله لهم مفزعاً إلا إلى الصلاة مع الإيمان به وهي مفزع كل منيب)[3].

---

(1) سورة طه: (13-14).

(2) سورة الشعراء: (46-47-48).

(3) تعظيم قدرة الصلاة (1/ 96-97).

وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تتضمن ما يدل على افتراض الصلاة على الأنبياء والمرسلين قبل نبينا عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾[1] الآية ، فلم يذكر إبراهيم عليه السلام عملاً لذريته غير الصلاة ، وقوله سبحانه عن عيسى عليه السلام: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾[2].

ومما يدل على فرض الصلاة على أنبياء الله إسماعيل، وإسحاق ويعقوب وزكريا، وداود، وسليمان، وإلياس، ويونس، وشعيب، ونوح عليهم السلام قول الإمام محمد المروزي : (ثم ذكر عز وجل الأنبياء نبياً نبياً فوصفهم، ثم قال: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾[3] فأخبر عن جميع الأنبياء أن مفزعهم كان إلى الصلاة، يعبدون الله ويتقربون إليه بها)[4] ثم قال : (وجاء الخبر عن رسول الله ﷺ أن الأنبياء قبله صلوات الله عليهم لم يزالوا يصلون الخمس التي صلاها جبريل بالنبي ﷺ)[5]، وهو : يشير إلى الحديث الذي رواه ابن عباس عن النبي ﷺ فيما معناه: أن جبريل عليه السلام صلى به عليه الصلاة والسلام الصلوات الخمس كل صلاة في وقتين: في أول الوقت، وفي آخره، ثم قال له: يا محمد الوقت فيما بين هذين الوقتين، هذا وقت الأنبياء قبلك)[6].

هذا ومما تنبغي الإشارة إليه، والتأكيد عليه، ونحن نتحدث عن مكانة الصلاة

---

(1) سورة إبراهيم: (37).
(2) سورة مريم: (30-31).
(3) سورة مريم: (58).
(4) تعظيم قدر الصلاة (1/ 113).
(5) المصدر السابق.
(6) أخرجه الترمذي (1/ 278-280) برقم (149) وانظر فيما مضى نفس المصدر (1/ 96) وما بعدها.

بعد الفقرة الثلاثين، أن مكانة الصلاة، لا يحاط بها، تعديداً، أو وصفاً لها، ولعلنا ونحن في ختام حديثنا عن هذه المكانة أن نشير في عجالة إلى ما يتصل بهذه المكانة في نقاط موجزة غير مفصلة، ومن ذلك إضافة إلى ما تقدم:

واحد وثلاثون: أنها الفريضة الوحيدة التي فرضت في السماء، وفرضها الله تعالى على نبيه محمد ﷺ بدون واسطة الوحي.

اثنان وثلاثون: أنها ليست نوعاً واحداً بل أنواعاً متعددة، ومما جاء ذكره في القرآن الكريم عن أنواعها: صلاة الجمعة، وصلاة الخوف، وصلاة السفر، وصلاة المريض، وصلاة الجنائز، وصلاة الجماعة، وصلاة العيد، وصلاة الليل، وجاءت السنة النبوية بتفصيل ما لم يرد تفصيله في القرآن الكريم من هذه الصلوات.

ثلاث وثلاثون: أن الله تعالى شهد لمن أقامها بالإيمان، فما أقامها، وعمر مساجد الله بإقامتها فيها إلا مؤمن قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾[1].

أربع وثلاثون: أنها لا تسقط بحال ما دامت روح المكلف بها لم تخرج من جسده، وهذا بخلاف باقي الفرائض فهي تسقط بعدم القدرة عليها مادياً، أو بدنياً.

خمس وثلاثون: أن الله عز وجل شهد لمن أقامها محافظاً عليها بوارثة الفردوس في الجنة كرامة منه سبحانه لعباده المصلين.

ست وثلاثون: ولمكانة الصلاة وشرفها عند الله تعالى أنها لم ترد في كتابه العزيز إلا مقرونة بصفات جليلة كريمة تهفو إليها كل نفس كريمة عالية الهمة.

سبع وثلاثون: أنها يستعان بها على كل أمر من أمور الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[2] الآية. ويلاحظ أنه قد ذكر في هذه الآية الكريمة

---

(1) سورة التوبة: (18).

(2) سورة البقرة: (45).

المستعان به، وهو الصبر والصلاة، بينما حذف المستعان عليه، وذلك لكثرته.

ثمان وثلاثون: ومما يدل على شرفها ومكانتها أنه ما وجد أب صالح إلا كانت الصلاة من أول ما يوصي به ابنه، أو أبناءه فيما يوصيهم به، فهي أول وصية الآباء الصالحين لأبنائهم، وهذا ما سجله القرآن الكريم حكاية عن لقمان في وصيته لابنه. قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[1] فدل تقديمها على أنها محور الصفات التي تليها.

تسع وثلاثون: أنها سبب لنوال رحمة الله. قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[2] ومن نال رحمة الله فهو السعيد في الدنيا والآخرة، ومن حرمها فهو الشقي، والرحمة من الله مترتبة على إقامة الصلاة، فمن أقامها فهو المرحوم.

أربعون: ومما يدل على مكانة الصلاة وفضلها: أن الشيطان الرجيم يعتزل المصلي وهو يبكي حين سجود المصلي، قال رسول الله ﷺ: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة، فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويل له (وفي رواية: يا ويلي)، أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار**»[3].

واحد وأربعون: أنها سبب لمرافقة النبي ﷺ في الجنة والدخول في شفاعته، روى مسلم في صحيحه عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: (**سل**) فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: (**أو غير ذلك؟**) قلت: هو ذاك. قال: (**فأعني على نفسك بكثرة السجود**)[4].

---

(1) سورة لقمان: (17).

(2) سورة النور: (56).

(3) صحيح مسلم رقم (81) وانظر: تعظيم قدر الصلاة (1/ 328).

(4) صحيح مسلم برقم (489).

اثنان وأربعون: أنها عمود الدين. وعمود كل شيء ما به قوامه، فإذا صح المود وقام قياماً صحيحاً، قام ما سواه بذلك القيام. أما إذ سقط العمود، فالبنيان كله يسقط، وذلك يدل على مكانة الصلاة وشأنها في الدين. فمن أقامها، فقد قام دينه وصح. والعكس صحيح. وقد بين الرسول ﷺ أن الصلاة عمود الإسلام في الحديث الذي رواه معاذ بن جبل ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ألا أخبركم برأس الأمر وعموده؟ قلت: بلى، يا رسول الله. قال: رأس الأمر: الإسلام. وعموده: الصلاة**»[1] وهو جزء من حديث طويل. قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

وبعد: فالحديث عن مكانة الصلاة حديث واسع لا يسعه رحب الأرض الواسع، وهي مكانة تتجدد مع مرور الليالي والأيام، ويتجدد معها المسلم المصلي.

ويظل ميدان الحديث عن هذه المكانة لا يضيق على من يلجه للحديث عن هذه المكانة، والله تعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

(1) جامع الترمذي برقم (2616).

obeikandl.com